مرقدُهُ فؤادي

سنى فؤاد لوباني

مرقدُهُ فؤادي

(سيرة ونصوص)

١٤٤١ هـ – ٢٠٢١ م

اسم الكتاب: مرقدُهُ فؤادي

المؤلِّف: سنى فؤاد لوباني

النوع: سيرة ونصوص

تاريخ: ١٤٤١ هـ – ٢٠٢١ م

جميع الحقوق محفوظة©

الإهداء

إلى شهيدي البطل (فؤادِ الروح).

تأنّيتُ بسكب لهيبِ الوجع، وزفرِ حُرقة الفقد، ونثرِ رماد الذكريات المُتفحِّمة.

إلى كُلِّ مَن سيخوض بحار كتاباتي، تأنَّ جيدًا؛ كلماتي ستجعلك تعيش حياة أبي وتجاربه بحذافيرها...

أهدي لروح أبي السلام... وكتابي هذا.

إلى جَنَّتِي!

بداخلي أنتِ، وطني الصغير – الكبير، وعالمي الشاسع. أُشْهِدُ اللهَ تعالى أنكِ كنتِ لي أُمًّا وأبًا، وكنتِ أنتِ العائلةَ والأصدقاء...

إليكِ يا أمّي؛ لأنكِ الداعمة الأولى لخطواتي نحو تحقيق أحلامي... يا صاحبة القلب المملوء أملًا وحُبًّا ورأفة...

فأشكر اللهَ إذ منحَني الجنة وأنا على الأرض!

وأشكركِ يا سمائي عندما تضيق عليّ الأرض، وأرضي عندما تتعب أجنحتي من التحليق؛ لأنكِ كنتِ طوق نجاتي من قهر اليُتم، وذُلِّ الأيام، وقساوة الحياة...

فلا داعي للدموع بعد الآن يا صديقة قلبي... ها هي سيرة فؤادكِ تبصر النورَ، وشهادة ميلاده الجديدة بين يديكِ!

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

شُكْرٌ

أشكرُ عائلتي، أمي وأخي وأخواتي، إذ إنهم أولُ من آمن بقدرات حبر أقلامي، ورفعوا أيديهم مصفِّقينَ دعمًا لخطوتي هذه...

أشكر رفاق الدرب، وأصدقاء العمر؛ لأنهم كانوا سندًا متينًا لي وتحمّلوا مزاجيتي فترة الكتابة...

أشكر أصدقاء أبي ومَن بقي مِن أثر حياته الفدائية...

أشكر مَن لم يبخل عليَّ بالوقت والمعلومات، مهما كانت بسيطة...

شكرًا لكل مَن ساهم بإحياء أبي أدبيًّا وإبداعيًّا...

شكرًا لكل مَن سيقرأ سيرةَ فؤادي!

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

تمهيد

أبي...

سامحني أني كنتُ طوال فترة غيابكَ حزينةً ومنطويةً على نفسي. لم أكن بخيرٍ، كان في داخلي كرهٌ كبيرٌ مُظلِمٌ، يمنعني من ممارسة الحياةِ، ويقف حاجزًا بيني وبين قلمي.

والآن، بعد أن بَذَّرْتُ تلك السنوات قَلِقَةً وحزينة، لا أجد ما يروي عطش قلبي لاحتضانك سوى الصور!

ولمّا نفدت ذخائرُ أمنياتي، اعتزلتُ العالم والناس جميعًا مشغولةً بقراءة روحي والبحث في أعماق قلبي عن إجابةٍ لسؤال واحد: (كيف أعيدكَ إليَّ؟).

فاخترتُ هذا الكتاب كي يكون صندوقًا أحفظ فيه ذكراك – ذكراك التي حفظتُها بعقلي وقلبي ووجداني قبل الورق –؛ لأنها وحدها مَا ينتشلني من تعبي وحُلكةِ أيامي.

والآن أهجر منفى الأحزان، وأتوجه إلى الله بدعائي وصلاتي أن يخفف عن قلبي مرارة الفقد واليُتم، وقساوة الأحزان والخيبات.

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

أكتبُكَ الآن، بفرحي وحنيني، بطفولتي التي لم أدرك منها سوى أحد عشر ربيعًا، بشتاء عمري العاصف والبارد، بتعثري ومحاولاتي الفاشلة الكثيرة، بنجاحي وإنجازاتي... لتكون أنتَ بداية عمري الجديد – عمري المملوء سعادة وأملًا...

انتصرتُ على أحزاني ويُتمي وخيباتي بقصتِكَ – باسمِكَ –؛ لأنكَ أورثتَني شرف التسمية بـ(ابنةِ الشهيد). انتصرتُ على الفقد إذ جاؤوا على قميصكِ بدمٍ شريف، وبخاتمٍ وضعتُه في سلسلةٍ تحتضن عنقي... وهكذا بقيَتْ أشياؤكَ جميعُها مجاورةً لقلبي الصغير الذي يكبر بحبّكَ وبما تزرع فيه من الصدق والخصال النبيلة...

حفرتُ اسمَكَ على شغاف قلبي؛ لذلك توجهتُ إليكَ بقلمي، لأنك الوحيد الذي يستحق أن تنساب أبجديتي له... وها أنتَ ذا أصبحتَ بدايتي، وأول محطات كتابتي.

ذاكرةُ فؤادي

"ضَيَّعَني أبي صغيرًا وحَمَّلَني دمَهُ كبيرًا"

امرؤ القيس.

يَدُهُ على الزّناد

في السادس والعشرين من شهر حزيران عام ١٩٦٩، في مخيم نهر البارد للاجئين الفلسطينيين شمال لبنان، في كنف عائلةٍ فلسطينيةٍ مناضِلةٍ أبًا عن جَدٍّ، وُلِدَ فلسطينيٌّ جديدٌ في الشتات... وُلِدَ أبي (فؤاد لوباني). مولدُه لم يكن استثنائيًّا، لكنه أيضًا لم يكن عاديًّا! امتدت حكايةُ أبي بين حزيران الولادة وحزيران الشهادة؛ إذ إنه وُلِدَ في حزيران، وأحَبَّ في آب، وتزوجَ في كانون الأول، وأصبح أبًا في أيلول، ثم استُشْهِدَ في حزيران...

كان طفلًا مشاغِبًا، وشابًّا تَشَرَّبَ الوطنيةَ، ورجُلًا متعمِّقًا بالقضية. وما انفَكَّ يردِّدُ: (أنا الفدائي... أنا الفدائي صاحبُ الحقِّ... أنا ابن فلسطين الحُرة الأبية). وعلى الرغم من أنه كان يردد الشعارات الوطنية بكثرة، إلا أنه كان مؤمنًا بها وبالقضية إيمانًا حقيقيًّا، فحُبُّه للوطن كان أعظم وأكثر نُبلًا من شعارات أو طقوسٍ تقليدية، كالدبكة والدحية.

ولأنه لا شيء يضاهي وجع لاجئٍ غُرِسَ في تربةٍ غير تربةِ وطنه، قد طالما شعرَ بالضياع، ولم يفارقه ذلك الشعور الذي يجعل الأرضَ تضيق عليه بما رَحُبَتْ. ولكن على الرغم من ظلمات المآسي وأهوال النكبات، كان يتسلل نورٌ من (قِبة الصخرة) إلى قلبه، فيولّدُ فيه حلمًا بأن يتجول بأرض الدامون، ويتنفس هواء عكّا، ويلامس بحر يافا الطاهر؛ كان يحلم بفلاحة أرض أجداده – وأجداد أجدادِه –، وبأن يزرع زيتونًا في أراضي فلسطين الطاهرة، ثم يجلس ليتأمل نموَّهُ وشموخَه.

وعلى الرغم من البعد عن الوطن، كان الوطن (فلسطين) حاضرًا بحلمه إذ ينام، وبأفكاره إذ يستيقظ، وبأفعاله إذ يمارس حياته اليومية؛ كان حاضرًا بعقلِه وقلبِه ووجدانِه، يجد السلامَ بالحديث عنه، والراحةَ بالتعبِ في سبيلِه...

ترك صفوف المدرسة في عامه الثالث عشر، بعدها بدأت حياتُه الفدائية، فالتحق في صفوف الجبهة الشعبية – القيادة العامة عام ١٩٨٤.

لم تكن فلسطين الجهةَ الوحيدة في بوصلتِه، لكنها كانت قِبلةَ آمالِه وأحلامه، وكانت قضيتُه أوسع من قضيةٍ وطنية، كان يراها قضيةً وطنيةً وقوميةً، فكان يُجِلُّ ويحب الأقطار العربيةَ كُلَّها...

كانتِ العروبةُ طريقَه إلى التحرير، وأداته للتمسك بالقضية، ووازعَهُ لإثبات الهوية؛ لذلك، خضع لدورةٍ تدريبية عسكرية في (أوزو) بليبيا عام ١٩٨٧، فخدم في السرية الرابعة.

دفعَهُ حُبُّهُ لوطنِهِ إلى الدفاع عنه وعن البلاد المجاورة له بكل ما أوتِيَ من قوة. حمل السلاحَ ورابط وحارب ضد كُلِّ معتدٍ ومحتل. شارك في المهمة القومية العربية للدفاع عن ليبيا أثناء حربها مع (تشاد) عام ١٩٨٧، ثم عاد للدفاع عن المهمة القومية في ليبيا عام ١٩٨٩، وخدم في سرية الرشاشات.

ومن رحم معاناته، تمسّكَ بحق العودة حتى الرمق الأخير. وعلى الرغم من التضييق والمآسي، كان يرى فيه أعظم أمنياته. وعلى الرغم من آلام اللجوء، كان يفخَـر حتـى بهويته الزرقاء التي هي بمثابة خَتْمٍ على الإنسانِ بالتشرد

والتشتت والضياع... تمسكَ بها لأنه لم يكن يرى فيها الشتات الأبدي، بل لأنها زرعت فيه إرادةً قويةً للحياة. وما أذكى فيه الرغبةَ المُتَّقِدةَ في العودة إلى فلسطين، هو حكايات آبائه وأجداده عن آبائهم وأجدادهم، فكانت هذه الحكايات بمثابة الدافع إلى النضال والكفاح ليجعل نهايتها سعيدةً، وليحمل هويته الفلسطينية بدل وثيقة اللاجئ تلك!

التحقَ في الكثير من المواقع العسكرية التابعة لتنظيم الجبهة الشعبية – القيادة العامة، للدفاع عن المخيمات، وتأمين الحماية والسلامة النفسية والاجتماعية والاقتصادية لها.

كان يؤمن أنّ المخيم ليس نهاية الحكاية، بل هو بداية حكاية طويلة، نهايتها الانتصار والتحرير والعودة إلى فلسطين. فتمسَّكَ بالقضية الفلسطينية، وسعى لترسيخ حق العودة على مَرِّ الأجيال، كي تتناقلها من جيل لجيل، ومن زمنٍ إلى آخر...

داوم في المواقع البحرية التابعة للقيادة العامة شمال لبنان، فشارك في الدفاع عنها أثناء الإنزال الإسرائيلي على

لبنان، فشارك في الدفاع عنها أثناء الإنزال الإسرائيلي على شواطئ منطقة العبدة.

غاب عن المخيم وذهب إلى العاصمة السورية (دمشق) فبقي هناك أربع سنواتٍ، لتُصقَلَ هِمَّتُهُ الفدائية أكثر وأكثر.

اهتمَّ بالشأن السوري – الفلسطيني – اللبناني، فتوسَّعَ عملُه الفدائي، فأصبح متنقِّلًا بين سوريا والبقاع الغربي جنوب لبنان، وكان حاضرًا كذلك حين ضربت إسرائيل الأنفاق، فشهد ضربة (كوساي ولوسي)، وظلَّ مُحتجزًا ثلاثة أيامٍ في أحد الأنفاق!

عاد سالمًا غانمًا شامخًا إلى لبنان، وقرر الاستقرار. فبدأ بتأسيس عمله الخاص، وتزوج عام ١٩٩١، ورزقه الله أول أولاده: (خالد)، سمّاه خالدًا وفاءً لـ (خالد أحمد جبريل) الذي رافقه سنواتٍ طويلةً.

وعلى الرغم من أنه استقرَّ، بيد أنّ روحه الفدائية لم تزل تنبض! ففي تموز عام ٢٠٠٦، اعتدى العدو على منطقة

العبدة المجاورة للمخيم، فكانت له وقفةٌ بطوليةٌ. فعلى الرغم من أنه لم يكن مسعِفًا، إلا أنه شارك في إسعاف الجرحى الذين أصيبوا في ذلك اليوم المشؤوم، لأنه كان يؤمن أنّ إنسانيته أولًا، ونضاله لصدِّ العدو ثانيًا، وهو اللاجئ ابن المخيم الذي به آلاف الجراح من العدو، وكان يقف وقفة الأبطال والصامدين ضد كل اعتداءٍ صهيونيٍّ همجيٍّ مخطَّطٍ له بشكلٍ مُسبَقٍ كي يفشِلَ أي مشروع للاعتداء على إنسانٍ مظلوم.

فهذا هو اللاجئ المناضل، الفدائي الشريف، العربي الفلسطيني، رحل قبل تحرير البلاد الذي قد طالما حلم به. لكننا شعبٌ خُلِقَ ليحقق أحلامه وأحلام أسلافه، ليكسر قيد المستحيل، ويرفع رايات النصر، ويكبر ويهلّل في كل إنجاز... وفي كل انتصار!

سنعود يومًا يا فؤادي حاملين مفاتيح العودة، مزيلين عنا هذا الكم الهائل من اللون الأزرق؛ سنحتضن كل ذرةٍ من تراب الوطن، سنرفع الأذان في المسجد الأقصى، سنقرع الأجراس في كنيسة المهد ببيت لحم...

سنعود يومًا، ستبصر أحلامك النور، سأعود وبيدي كتابي هذا... وتاريخك الفدائي. سنصلي بأولى القِبلتَيْن، نتجول برحاب الوطن، نلقي التحية على أرواح شهداء غزة الأبية، وأتذكرك... أتذكرك فأوصل إلى روحك سلامَ أمِّك فلسطين.

سنأكل من ليمون يافا، ونأخذ صورةً تذكاريةً على سور عكا، ونذهب للدامون لنحيي ذكرى أجدادنا، ونأكل من عنب الخليل، ونزور سهل جنين.

سوف نلوِّنُ الربيعَ، وندفِّئُ الشتاءَ.

سنقطف الزيتون في الخريف، ونسبح بعمق بحر الصيف...

إنّ بسالة الأبطال ستسجل، بأحرف من نور، الثورة والمجد والحرية والانتصار... سوف نلملم رماد الآلام يدًا بيد، فننهض وينهض وطننا ويعلو... يعلو فوق مآسيه... سنكبر بوطننا كما كبر بنا، سأخبر سماء فلسطين وأرضها وقبة الصخرة وأشجار الزيتون كم ناضلتَ من أجلهم!

سأعود قريبًا، وأحدِّثُ أبنائي عن التحرير كما حدثتَني عن النكبة... سأخبرهم عنك يا أبي...

سنعود ليجرب أولادي طمأنينة الخطوة الأولى في باحات المسجد الأقصى، فأمسك بيديهم ونتجول من الصباح حتى المساء. في الصباح نذهب شمالًا، وفي الظهر جنوبًا، وفي العصر شرقًا، وحين يلفظ النهار أنفاسه الأخيرة نذهب غربًا. سأحدثهم عن أيامنا (المُخَيَّمِيَّة)، عن لجوئنا... عن نضالك...

سنحذف من قاموسنا مفردات الهزيمة والنكبة والنكسة والمؤامرة، ونقتلع أشواك الاحتلال، ونملأ الأرض خُزامى وياسمين... سأعود فخورةً بالنصر... فخورةً بك!

سأحدِّثُ الجميع عنكَ!

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

أميرُ حكاياتِ طفولتي

الأبُ الحنون لفتىً وثلاثِ فتيات، والزوج البارُّ بزوجتِه الوفيّة، يحمل بين جنبَيْه قلبًا مُحِبًّا وعطوفًا ليكون السند والعُزوة لعائلتِه. يوازن بين العالم الخارجي القاسي، وعالمه الداخلي الرقيق، ويملك مفاتيح أبواب السعادة والحب، وتحمل كلماتُه أمانًا واطمئنانًا عظيمَيْن.

في تجاعيد وجهه وتشقق يديه، في ظهره المُتعَب من أثقال الحياة، قصة نعيمٍ عشتُه أنا وإخوتي في بيتنا المتواضع الذي غُيِّرَ مرتَيْن؛ الأولى لأنه احترق، والثانية لأنه دُمِّرَ! هذان المنزلان يحتلان جزءًا كبيرًا مني – من ذاكرتي الطفولية مع أبي وأمي وإخوتي –. كانت حياتُنا جميلةً وهادئةً وصافية... صافيةً كسماء الربيع، وأرض أمنياتنا وأحلامنا مُزهِرةً، نابعةً بالأمل، نابضةً بالاستبشار وحُبِّ الحياة... طموحاتنا شامخةً كقاماتِنا.

كنا نركض في حديقتنا، نتراقص مع أوراق الشجر، نسقي

الأزهار من ضحكاتنا، ونطعم الطيور من سعادتنا. أطفالًا كُنّا – وما زلنا –؛ فكلما شعرتُ بالحنين إلى تلك الأيام، أعود إلى طفولتي، إلى ما قبل السنة الحادية عشرة لوجودي في هذه الحياة. وقد أخبرتني أمي أنّ أول ما انطلق به لساني من حروف هما حرفان: ألف وباء – ألف وميم؛ إذًا، أول ما جرى على شفتَيَّ من كلمات، هما كلمتان: أب وأم!

الكلمات الأولى كالفكرة الأولى، وحدها تشبهنا، تترسخ داخلنا وترافقنا إلى ما بعد النهاية، بلا وعيٍ منا، نجدها تدخل في صيغ كلامنا كلها، فنبني عليها آمالنا وأحلامنا لتكون بمثابة الدعامات المتينة لمستقبلنا... بعدها نحكي الكلمات الثانوية...

هل يوجد في هذا العالم أرق من كلمة (أب) وأعذب منها؟! كلا، أجيب جوابًا جازمًا لأنّي على يقينٍ من أنّ أبي لم يكن شخصًا عاديًّا أبدًا، جعلني وإخوتي – هو وأمي – نجومًا في سماء حبهما النبيل، وكانت عواطفهما وحنانهما علينا بروقًا تضيء لنا ظلمات الدروب الوعرة!

كنا نعيش حياةً أقل ما يمكن أن يُقال عنها إنها غايةٌ بالسعادة والاستقرار. على الرغم من ضيق الظروف الخارجية، لم يكن للحزن والقلق مكانٌ بيننا... لا آلام ولا أوجاع! كان أقسى آلامي ألمُ جرحِ ركبتَيَّ! فقد حدث أن سقطتُ عن دراجتي التي أحضرها أبي لي، كانت ذكرى ميلادي الخامسة، لكن سرعان ما زال ألمي عندما جاءني أبي فرأيتُ فيه المنقذ لي مما أنا فيه ولم أخطِئ! جاءني فانتشلني من الطين الذي لوّثَ فستاني الجديد وحذائي الورديّ، ثم عَقّمَ جرحي الطفيف، وقال لي:

– صغيرة البيت تتدلل وتتغنج!

والآن أقول لك يا أبي:

– هل يوجد أجمل من الغنج والدلال وتصنّع الآلام في سبيل التباهي بلهفة بطلي الأول عليَّ وتهافت رجُلي وفارسي على تضميد جرحي؟!

وما هدّأ من ثورتي في ذلك الوقت، هو أنّ أمي تعهدت بإعادة الفستان كما كان...

فيا لحياة الطفولة!

كان أكبر خذلانٍ تعرضتُ له عندما اقتلعت ابنة جيراننا رأس دميتي... تلك المجرمة الصغيرة!

إلا أنّ أبي أوصاني ألا أتعارك معها، وما كان منه إلا أن سارع لشراء دميةٍ جديدةٍ أجمل من السابقة. لم أزل أحفظ تفاصيلها حتى الآن، أنا ابنة العشرين سنة، كان لونها أزرق بلون بحر الصيف، ويقولون إنّ اللون الأزرق رمزٌ للراحة والسكينةِ... وإني أحبه!

أحبه لأنه يذكرني برحلاتنا العائلية إلى شواطئ (طرطوس) الرحبة. وكم تساءلتُ عن السر الذي علَّقَ أبي ببحر طرطوس في سوريا. كانت الأحزانُ تشتعل في نفسه كلما عدنا إلى بيتنا بعد انتهاء زيارتنا لذلك البحر، فيبدأ بالتخطيط لرحلةٍ جديدة!

كم يظلمنا الوقتُ حين يتسرب من بين أصابعنا، كم تظلمنا الحياةُ حين تجعلنا نعيش بعضًا من لحظات عمرنا خاليةً من لحظات الأنس التي تكون بقُربنا ممن نحبهم ويحبوننا...

تتسرب الأيام من بين أناملي التي اشتاقت أن تعانق أناملَ

أبي التي تكبرها حجمًا بكثير، وتكبرها بالدفء أكثر بكثيرٍ من الكثير!

آه يا أبي، أنا طفلتُكَ الصغيرة المدللة عمرها الآن، بحسب الأوراق الثبوتية، عشرون سنة. بيد أنّ عدّاد عمرها توقف عند السنة الحادية عشرة!

عالقةٌ عند همسات أبي، عند ضحكاته عندما يكون تعِبًا بعد يوم عملٍ شاقّ، عند بشرتِهِ السمراء التي عشقتْها الشمسُ فقبَّلَتْها، عند تفاصيل جبينِه وتعرجاتِه التي تمثِّلُ سِنِيَّ حياته التي أنفقها في سبيلنا، عند بياضٍ ناصعٍ يحتضن مِحْجَرَيْ عينيه السوداوين...

غارقةٌ أنا وسط صوت صهيل التفاصيل القديمة الحلوة؛ عند طاولة العشاء التي تحوي أنواعًا من الأجبان والألبان؛ طاولة تحتضن دفء عائلتنا.

لا ينطبق على أبي القول المشهور (في فمه ملعقة من ذهب). أسَّسَ أبي عملَه بتعبه وعرق جبينه... بقوته التي استمدها من رغبتِهِ الكبيرة بتوفير العيش الكريم والرغيد لعائلته. فبدأ من نقطة الصفر، ثم تدرج على

سُلَّمِ الحياة والعمل حتى نال مراده، وأصبح من أكبر تُجّار الأجبان والألبان ومُوَزِّعِي الخُبز في المخيم... ثم كبر حجم عمله ليشمل المناطق المحيطة بالمخيم.

وبما أنني ذكرتُ الخبز، لا بد من التوقف عند رائحة الخبز الساخن التي تخطف القلوب! تلك الرائحة حازت، وبجدارة، الأوسكار بقوة التأثير في النفوس والقلوب إذ تفوح وتنتشر في زواريب المخيم... لا أشعر بي إلا وأنا أتنفسها بدل الهواء، ولم أزل كذلك حتى لحظتي هذه؛ لأنها شيءٌ يخص أبي... وكل ما يخص فؤادي هو وجهتي الأولى والوحيدة!

مع بزوغ شمس كل صباح، كانت رائحة الخبز الذي يوزعه أبي توقظني. قد لا يحصل هذا مع عامة سكان المخيم، لكنّي ابنةُ الفؤاد، أشعر بنبضاتِه، أنتشي برائحة خبزِه، أشعر بالأمان في الهواء الذي يتمازج مع تلك الرائحة... فكيف بي إذا اجتمعت قطعةٌ من أجبانِه على رغيفٍ من خبزِه؟! أجزمُ أنّ أمان العالم أجمع وكل ما فيه من محبة يكون في هذه العروسة!

هذه كانت وجبة الإفطار المدرسية كل صباح، بعد كل جدالٍ، إذ لا أذكر أني ذهبتُ إلى المدرسة من تلقاء نفسي يومًا! فعلى الرغم من أنّ المدرسة كانت لا تبعد عن بيتنا سوى شارعين، ما انفكيتُ أتمارض وأدّعي الحُمّة، وكنت أستخدم بعض الحِيَل الطفولية ويصل العناد بي حَدَّ البكاء.

لكن ذلك العناد، وتلك الرغبة الطفولية بالبقاء تحت الغطاء في يومٍ شتوي بارد، كانَا يُهزمان بعرضِ أبي الذهبي لي. بكلمتين منه أحب الدراسة والمدرسة، ويزول عبوس وجهي فتحل محله بسمةٌ وضّاءة، يُهزم السخط ويفوز الرضا...

أتراكم عرفتم ذلك العرض الذهبي؟

هو سؤال بسيط: (وإذا قمتُ بنفسي بتوصيلك إلى المدرسة؟)، فأهز رأسي موافِقةً...

ويتابع أبي عرضه الذهبي، فيضيف: وأمسك لك عروستكِ الدافئة! فأمسك أنا بكل قوتي الطفولية يده وأمشي محمولةً على سحاب الرِّقَّةِ والأحلام، لأنّ كل ما

كنتُ أفعله في الصباح هدفه أن يوصلني هو إلى المدرسة فيحمل لي حقيبتي وأمسك أنا يد فارسي وبطلي... فأي قوة يملك الآباء؟!

المشهد أشبه بحياة الأميرات، أعتقد أن تلك اللحظات كانت أجمل من كل اللحظات التي عاشتها أميرات (ديزني)! أمشي بخطىً واثقة، يلامس رأسي السماء عندما يزرع أبي قُبلةً على جبيني، ويلوح لي مودِّعًا... قد طالما شعرتُ أني الطفلة الوحيدة التي تملك أبًا في العالم... ربما الجميع لديه أب، لكن ليس كأبي بكل تأكيد!

كان أمير حكايات طفولتي؛ لم أكن أخشى وداعه عند باب المدرسة الخارجي، لأن ثقتي بعودته ليأخذني إلى البيت عند انتهاء الدوام كانت راسخةً كما الجبال في الأرض...

والأجمل من أيام المدرسة، يومُ العطلة. كان يوم الأحد يومًا غير عاديٍّ بالنسبة لأبي، كانت آحادنا فريدةً، يستيقظ أبي صباحًا ليشرب قهوته على مهلٍ، فهو يؤمن بقول (محمود درويش): "القهوة أخت الوقت"! لذلك كان يجلس على شرفة غرفته المطـلّة على حديقة المنـزْل،

فتتمازج رائحة القهوة مع رائحة أزهار الغاردينيا والياسمين والورد الجوري، وفيروز تدندن ويصاحب صوتَها تغريدُ العصافير الفَرِحة صباح الأحد...

ومرَّتِ الأيامُ...

لم أدرِ ما كان بانتظاري...

كان آخر فرحٍ في ديارنا، حين كنتُ أرتدي فستانًا طويلًا أبيض اللون، ويعتلي رأسي تاجًا ملكيًّا، وأشاهد أبي كيف يرقص فرحًا على رأس الدبكة... وبعد الدبكة، شبَكَ يدَه بيدي، وأخذنا نرقص ونرقص ونرقص حتى انتهاء الفرح... أذكر ذلك المشهد ولا أنساه، ولا أملك منه سوى صورةٍ تجمعني بأمير حكايات طفولتي!

تحت أشجار حديقتنا خبّأتُ ذكريات طفولتي ولحظاتي الجميلة... كانت وما زالت وجهتي الأولى... والأخيرة!

عشتُ حياتي طوال الإحدى عشرة سنة الأولى من حياتي على عكازَيْن، هما والداي! قد طالما أنقذاني قبل أن أقع في فخاخ الحياة، أو أكون فريسة الآلام والأوجاع. لكن دارت الأيام وقستْ عليَّ الحياةُ، فخسرتُ عكازًا، ومنذ

ذلك الوقت وأنا أمشي عرجاء، وأعيش ألمًا سيطر على فِكري وقلبي – ألمًا يصعب انتشالي منه!

ألم الفقد والحرمان يفجِّرُ في داخلي بركانًا من الضياع والوحدة، وأحمل في قلبي المنهَك لوعتي على أيامٍ كان الفؤادُ رونقَها... كانت رائحة الخبز وطعم الأجبان والألبان أهمّ مصادر الأمان فيها...

واليوم، كلما شممتُ رائحةَ الخبز أو الأجبان والألبان أتبع المصدر! وحين أصل ولا أجد أبي أجهَشُ، تترقرق عيناي، ثم أبكي وأنا على متن سفينة أفراحي وأحلامي التي تتخبط يمينًا وشمالًا وسط بحر هائج من الأوجاع والآلام...

لا أملك إذ ذاك إلا أن أحتضن أبي في ذاكرتي... في أحلامي... في رائحة الخبز!

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

الحربُ ونقطةُ الصّفر

إنّه اليوم العشرون من شهر أيّار عام ٢٠٠٧، نستعد جميعًا لإنهاء العام الدراسي ونخطط لعطلةٍ صيفيّةٍ مليئةٍ بالنشاطات والاجتماعات والسهرات العائلية التي يحفُّها الأنس، وتسودها الطمأنينة، وتغزوها ضحكاتنا البريئة...

لكن، وفي ليلةٍ هجرَ فيها القمر سماءَ فرحتِنا، وبعد أن كنا نرقص كما الغزلان في السهول، ونغنّي كما تغرّدُ العصافير، ونتمايل فرحًا كما أوراق الأشجار في النسيم... انتهى عرس خالي (محمد)، وخفَتَتِ الأغاني، واختفت الزغاريد وراء ستارٍ أسود من الفقد والضياع... لقد قُرِعَتْ طبولُ الحربِ!

دوَّتْ أصواتٌ مخيفةٌ في فضاء المخيَّم، تبدّلت أقلام أدبائنا وريشات فنّانينَا بالبنادق، وانتصرت رائحة البارود على رائحة أزهار حدائق المنازل، وتغلَّبَ صوت الرصاص والقنابل على صوتِ فيروز، وصارت الدبابات والآليات

العسكرية أكثر من السيارات المدنية! وصار الناسُ يصحون على دويِّ القصف بدل زقزقة العصافير...!

فاجأتِ الحربُ الجميع، وأسقطت أقنعة مُدَّعي حقوق الإنسان والتمدّن. في تلك الحِقْبة المريعة من حرب المخيم عرفنا أنّ حقوق الإنسانِ في عالمنا لا تعدو كونها حبرًا على ورق، أو كلمات وخطب رنّانة في المحافل الدولية...

مع شروق شمس ذلك اليوم، حُوصِرَ المخيم. وما لبث صوت الرصاص أنْ سلب المخيم سكينتَه وأمان شوارعِه... والحق أقول: لقد قُصِفَتِ الآمال ونُسِفَتِ الأحلام قبل البيوت والحجارة!

وعلى الرغم من كل ما كان يحدث، لم يتخلَّ أبي عن عادته الصباحية، فأخذ بيد أمي، وحمل ركوة القهوة فصعَدَا سطحَ المنزل الذي يتميز بإطلالته البحرية الساحرة. والحقيقة أنّ الحرب والحُبَّ لا يجتمعان إلا في المخيم، فشرب أبي وأمي قهوتهما وسط دخان الحرب ودويّ القذائف وأزيز الرصاص بدل أن يشرباها بين ربوع حديقة منزلنا المُطَمْئِنَة!

كانت جلسة أمي وأبي، على الرغم من ضجة الحرب ووحشتها، هادئةً ومملوءةً أُنْسًا وأمانًا. لكن سرعان ما قضى الأمان والأُنْسُ بقذيفةٍ وقعت في منزل جيراننا، فارتعبت أمي بينما كانت تهمّ بملء فنجان أبي بالقهوة، فسقطت ركوة القهوة من يدها، وغاب صوت فيروز، وبدأت منذ تلك اللحظة الأوقات العصيبةُ...

كانت منطقة الكورنيش محور الصراع وأبرز جبهات القتال، لذلك كان القرار الحاسم لأفراد العائلة إخلاء البيت والذهاب إلى بيت جدتي في المخيم القديم. وبسبب صخب الحرب، والخوف الذي استبدَّ بنا جميعًا، لم تأخذ أمي من البيت ولا حتى قشة، بل خرجنا بما علينا من ثياب، تاركين وراءنا سهراتنا المؤنِسة، وأحاديثنا الطويلة، وذكريات... ذكرياتٍ هي أغلى ما نملك! وليت الهجر اقتصر على الماضي، بل خسرنا أيضًا أملنا بمستقبلٍ فيه راحة قلوبنا ونفوسنا...

أطفالًا كُنَّا، ويا لقباحة ما رأت أعينُنا البريئة من أهوال الحرب، وما سمعت آذانُنا من صخبها!

وصلنا إلى بيت جدتي وكنا خمس عائلات!

بدأ القصف واحتدمت المعارك، أجسادنا تتضور جوعًا، وكان أقصى أحلامنا إسكات معداتنا التي لا تكف عن القرقرة كإنسانٍ كئيبٍ يئنّ. كنا نريد فقط إسكات فوهات البنادق والمدافع.

كان الحصار بخيلًا جدًّا، إذ لم يسمح لنا بتأمين قوت يومنا، فكان الكبار يعطفون على الصغار، يطعمونهم من باب أنهم أولى والأكثر عُرضة للموت جوعًا. ثم إذا ما عفي عن الأطفال شيءٌ من الطعام، تقاسمه الكبار بينهم بالعدل ليتساووا في كل شيء: في الحصار والقهر، في الخوف والقلق... في الجوع والعطش!

نجوم الليل كانت صَلبةً وميتةً، والقذائف تختال في السماء كالشهب. لا أنسى ذلك المشهد، الكل مرتقِبٌ تحت السقف الذي لا يُعلم متى يَخِرُّ على مَن تحته، والأمنية الوحيدة التي تمنيناها هي أن نموت من دون ألم!

كنا نتخيل أنفسنا في غياهب بيتٍ مدمَّرٍ، فالموت خاطفٌ يسرق أرواح الأطفال مثلي في ذلك الوقت، ويحصد الكبار أيضًا، ولا تفرّقُ المدافع بين بيت فلان أو

علّان، ولا تميز الرصاصات بين صغيرٍ أو كبير، رجلٍ أو امرأة...

بقينا ثلاثة أيامٍ بين مدِّ الحرب والقلق وجزْرِ الدمار والموت. لم يعد بمقدور أحدٍ أن يصمد أكثر، أرواح الأطفال تذوي خوفًا، الأمهات تستنجد بالآباء للخروج، والآباء كبَّلَتْ أيديَهم المعاركُ والخساراتُ الفادحة في الأرواح وجنى الأعمار!

كان قرارُ رحيلِنا عن مهد أحلامنا (المخيم) قرارًا بالتوجه نحو الحياة الجسدية والموت الروحي! كان مثلنا كمثل الطيور المهاجرة في تشرين، نحلّق بأجنحة الأمل التي أثقلتْها الخيبات، وكسرها الخوف، ننظر بألمٍ إلى ما عَمَرَتْ أيدينا، وبحسرةٍ إلى ما عشنا في مخيمنا من ذكريات ولحظات هي رأس مال المُهاجِر والمنفيّ.

هل التاريخ يعيد نفسه؟ أم المجرمون لا يتوبون من إجرامهم؟ أم الصالحون يمارسون وظيفتَهم؛ الموت والهجرة وفقدان الأحلام والمآتي؟

لا أعرف السبب حقيقةً، إلا أنّ ما حدث معنا هو نفسه ما حدث مع جدّي في نكبة ١٩٤٨، عاش أبي تجربة أبيه بعد ستين عامًا تقريبًا... سنة ٢٠٠٧!

لا فرق بين نكبة المخيم عام ٢٠٠٧ ونكبة فلسطين عام ١٩٤٨؛ الأطفال يتمسكون بأطراف ثياب أمهاتهم، الأمهات تحمل بعضًا من الطعام يكفيهم مدة يومين أو ثلاثة كَحَدٍّ أقصى، الرجال يجرّون خيباتهم وانكساراتهم على ما تركوا من جنى الأعمار... ظنّوا أنهم عائدون بعد شهر، وامتد ذلك الشهر خمسةً وسبعين عامًا!

خرجنا من المخيم، كُتِبَتْ لنا النجاة من موت الجسد، لكنّ قلوبنا ماتت حين خرجت من منبع عواطفها وأمانيها. لم نعتد الوجع ورائحة الدم، لم نتأقلم مع صرخات النساء وبكاء الأطفال... لم نجد الأمان إلا حين اجتمعنا باللاجئين أمثالنا!

التقينا بهم عند مدخل المخيم، حاملين زجاجات المياه والعرائس (السندويتشات) ليوزعوها على الأطفال... نحن اللاجئون نطمئن بجوار بعضنا البعض، نتكئ على

أوجاعنـا ونصنع أملًا جديدًا بأيدينا، ونساند بعضنـا لنقف من جديد...

المشهد لا يفارق ذاكرتي!

كلما قَدِمَ شخصٌ جديدٌ من المخيم، حيث المعارك والقصف، تلتف حوله الأرواح الدافئة لتخفف عنه برودة الصدمة والضعف. يجتمع الناس حول الإنسان الذي أُجْبِرَ على الخروج من وطنه، ثم ها هو يُجبَرُ على مغادرة منفاه حتى! لكنهم يجتمعون حوله لتطبيب جراحه المعنوية، ويسألونه عن الوضع داخل المخيم؛ ذاك يسأله عمّا إذا نجحوا بإخراج أخيه العالق تحت الأنقاض، وتلك تسأله عن ابنها المفقود.

لقد عشنا تغريبةً جديدةً!

القنوات التلفزيونية تصوّرُ مأساتنا، بيد أنّ عدساتها عاجزةٌ عن رصد ما رصدته أعين النازحين من أناسٍ أرق من الرِّقَّة قُتِلوا بكل قسوة، من أطفالٍ خسروا أهاليهم، وأهالٍ خسروا أطفالهم... عدسات الكاميرا عاجزةٌ عن

رصد تعابير الصدمة والخوف على وجه إنسانٍ تحت الأنقاض!

جربتُ حياةَ التشرّد والضياع وأنا ابنة ستِّ سنوات،

خسرتُ طفولتي وأحلامي التي أودعتُها مقعد المدرسة الخشبي، وسريري الصغير في بيتي الذي هُدِم!

بقيتُ بلا مأوى ليالي كثيرة، وعلى الرغم من ذلك لم يشغل بالي إلا النجاة بمستقبلي... لم أُرِدْ أن يكون مستقبلي كحاضري... أو كماضي أبي وجدي!

أحلم في ظلمة الليل، في حُلكةِ الظروف، وسط فوضى الآلام والخذلان ورائحة البارود وأملاح اللجوء والضياع... منذ ذلك الوقت، أضفتُ للحقل المعجمي للوجع مفردةً جديدةً، هي (اللجوء). نحن الشعب الأكثر حيازةً لجوائز الأوسكار في الوجع واللجوء والتشرّد...!

وبعد أن كنا نعيش في أقصى شمال لبنان، توجّهنا إلى مدينة صور فأصبحنا في أقصى الجنوب. بين أقصى الشمال وأقصى الجنوب عشنا أقسى الوجع! وكما لا

يغفو الطفل إلا في حضن أمه، لا نغفو، نحن اللاجئين، إلا في حضن مخيمنا.

وفي كل يومٍ كنا نتلقى خبر تدمير حَيٍّ من أحياء المخيم، كنا نحزن ونبتئس... لكننا كُسِرْنا – كُسِرْنا بكل ما في هذه الكلمة من ذُلٍّ وخيبةٍ وقسوة – حين سمعنا خبر تدمير جنى عمر أبي!

محله الكبير الذي أفنى في سبيل إنشائه وتطويره سِنِيَّ عمره يُدَمَّرُ بلحظاتٍ وبقذائف معدودة! كان هذا الخبر كموج بحرٍ أسود كسَّرَ ضلوعَه وأغرق قلبَه بالأحزان وأسكتَه عن الكلام حتى، حتى دموعه خانته فلم تنهمر لتطفئ لهيب روحِه!

لم يعد عنده القوة لكبت مشاعره، بانت عليه الصدمة، انكفأ عن الكلام والاجتماع بالناس، لم يعد كما كان! حاول جاهدًا إخفاء ما يعاني من وجع، وما يكابد من ألم الخسارة والانكسار، لكن من دون جدوى! فمجرد التفكير في أنّ ما لبث سنين كثيرةً يؤسسه ويبنيه ويطوّرُه ذهب وأصبح لا شيء، هي فكرةٌ تكوي القلبَ!

أصبح أبي مُتقلِّبَ المزاج، غاضبًا معظم الوقت، محتارًا، خائبًا... ظهرت خيبةُ أمله حين قال بفعل القهر والألم:

– أفنيتُ عمري وحولتُ حياتي إلى حياةٍ فدائية، وها أنا لم أستطع حماية منزلي ورصيد حياتي وحصاد عمري!

كانت رؤية أبي خائبًا ومنكسِرًا أقسى، بالنسبة لي، من مشاهد البيوت المتهدِّمة، أو البشر الذين يملؤون الشوارع هاربين من الموت؛ أقول ذلك لأني كنت، وما زلت، ولن أبرح، أراه عمود منزلنا وعُزوتنا وسندنا!

ولمّا ضاق أبي ذرعًا بتحمّل البعد عن المخيم، ولمّا كانت العودة إلى مخيم نهر البارد مستحيلةً، قررّ الانتقال إلى مخيم البداوي، لعلّ بركان القهر الذي انفجر داخله يهدأ، وبحار الاضطراب والخوف التي ثارت في نفسه تركد.

انتقلنا إلى مخيم البداوي، وليتنا لم نفعل!

نحن الذين كنا نعيش آمنين في بيتٍ فسيح يحتضن سهراتنا العائلية بغرفه الكثيرة الواسعة، أصبحنا نعيش في كراج يتسع لسيارة واحدة، وأصغر من غرفة ألعابي في بيتنا القديم في المخيم! لقد ضمّنا هذا الكراج نحن

وجيراننا الذين بقوا من رائحة المخيم، فكنا نتبادل الأدوار: عائلةٌ تجلس داخل الكراج مدةً محددة، وحين تنتهي مدة بقائها ترثُ عائلةٌ أخرى مكانها وتخرج تلك إلى ساحة الكراج! وكنا نتابع أخبار المخيم على شاشة تلفازٍ صغيرةٍ غير ملونة، نرى ذكرياتنا وإنجازاتنا التي أنجزناها والتي نحلم أن ننجزها تحت ركام المنازل...

مرّتْ علينا أيامٌ عِجافٌ لم نذق فيها كسرةَ فرح! استمرت الحربُ ثلاثة أشهر، عشناها بكامل انكسارنا... هكذا ظننتُ! ولكنَّ بعضَ الظن إثم، فعندما دوّتْ صفارات نهاية الحرب قرَّرَ أبي أن نعود إلى المخيم فورًا. ولم تكن العودة محفوفةً بالسعادة كما ظننتُ أيضًا، بل لبثنا نهارنا ذاك منتظرين على حاجزٍ عسكري كي يسمحوا لنا بالدخول إلى بيوتنا... وبالعودة إلى ذكرياتنا.

ولمّا سمحوا لنا بالدخول، اختفت ضحكاتنا، وخفتت أحاديث الجارات... لم يبق شيء سوى قطع محروقة من القماش، وصور ممزقةٍ تشهد على ماضٍ مليء بالسلام دفنه حاضرٌ تسيطر عليه الحرب ويحكمه الانكسار والتشرد. ومع ذلك، رفض سكان المخيم الاستسلام

للمأساة، فعطفوا على بعضهم البعض، وبإصرارهم وتصميمهم عاشوا في بيوتهم على الرغم من أنها أقرب إلى الخرابة من البيت، فغطوا أسقفها المتهالكة بالنايلون، واستعاضوا عن زجاج النوافذ بالكراتين...

صمد سكان المخيم كما لم يصمد أحدٌ قبلهم، لكنّ حياتهم بالتأكيد لم ولن تعود كما كانت؛ ففي كل بيتٍ فقيدٌ أو شهيد! دُمِّرَ المخيم عمرانيًّا ونفسانيًّا؛ فأُبيدَتْ ضحكات الأطفال وأحاديث النساء قبل الحجارة! لا هذه الحياة المشوَّهة حياتنا، ولا هذا الجو المشحون بالخوف هو جوُّنا.

الحياة تستحيل سجنًا حين يفقد الإنسانُ بيتَه ويخسر خُلَّانَه وأصدقاءه. أُزهِقَتْ أرواح وأُريقَت دماء وأُبيدَتْ أحلام كما لم يحصل في أي حرب!

وكالعادة، ضحايا الحرب هم المدنيون الذين وُلِدُا لاجئين، ثم عانوا الحرب، ثم ذاقوا مرارة اللجوء والخذلان والحرمان مرةً أخرى! لقد قتلت الحربُ ما تبقى من أمل في قلوبهم، ومع أنّ المخيمات كانت موطنًا للحب على الرغم من المعاناة، لم يقدر الحب هذه المرة أن

يتغلب على معاناتنا ويفُز على خيبةِ أملنا جميعًا... نزفنا دماءً وذكرياتٍ وأحلامًا...!

كل صاروخٍ كان يذهب ببيتٍ أو محل تجاريٍّ هو جنى عمر اللاجئ، بناه بعرق الجبين وتعب السنين.

كل صاروخٍ دَمَّرَ حلم شابٍّ كان يتحضّر لحفل زفافه على البنت التي أحَبَّها قلبُه وهامت بها روحُه، بنى من أجلها مستقبلَه لحظةً بلحظة، كما يبنى العصفور عُشَّهُ قشّةً قشّةً.

دُمِّرَ المخيم الذي احتضن ضياعَنا!

ورغم أنف الحرب والمتحاربين... نفض الجميع غبار الوجعِ والقهر، وبالحب والأمل أزالوا لوثة الحرب عن المخيم...

أما أبي، فاستجمع قواه ليبدأ من جديد. نفض عنه غبار اليأس، فلا تليق بحضرته الهزيمةُ، كسر قيود الخيبة، وبكامل الإصرار والعزيمة شَقَّ طريقًا جديدًا نحو مستقبلٍ رأى فيه الأملَ والقوة والقدرة على التغلب على الصعاب...

قد تُبتر الشجرة، ولكن يبقى في الأرض شيءٌ منها فتنمو من جديد وتترسخ في تربة الإصرار، وتقاوم ريح الحياة، وتتحدى خريف العمر... هكذا كُنا... ولم نزل... متمسكين بالحب، متشبثين بالحياة، عاشقين لوطننا... لفلسطين!

بين صيف الطفولة وشتاء الموت

"إذا كان الأحياء يموتون فإنّ الشهداء يزدادون شبابًا"

مريد البرغوثي.

حزيران ٢٠١٢

من المفترَض أن تُزَفَّ أفراح العائلة في هذا الشهر (حزيران – ٢٠١٢). يستعد الجميع لأسابيع السعادة القادمة، حُدِّدَ حفل زفاف عمّي محمد في ٢٥ حزيران ٢٠١٢، وحفل زفاف ابنة خالتي (ليليان) في ٣٠ حزيران ٢٠١٢.

شَذَّ خالي أحمد عن هذه المواعيد، فكان حفل زفافه في مطلع شهر تموز عام ٢٠١٢.

شباب العائلة يستعدون لسهرات (توديع العزوبية)، فيتجهّزون للغداء ولحمّام العريس.

أما الفتيات، فيرقصْنَ فرِحاتٍ ويجتهدْنَ بالبحث عن فساتين مناسبة، والأهم من شكل وموضة الفستان هو

ألا يكون قد سبقَهُنَّ إليه أحدٌ! فيا لها من مهمة صعبة للفوز بثلاثة فساتين لم يرتدِها أحدٌ من قبل.

تسارع النساء لتأمين مستلزمات الطعام من أجل إعداد وجبة غداء العريس. فتُرَدِّدُ جدَّتاي:

– أعاننا الله! معارف الشباب كُثُر، كيف سنلحق؟!

فتلجأ النسوة إذ ذاك إلى مبدأ (تقسيم العمل)؛ فأوكَلْنَ إلى أبي مهمة شراء حبال الأضواء والشادر الذي لم أزل أذكره. كان أزرق اللون، يبلغ طوله حوالي ثلاثمئة متر كي يتسع لمعارف الشباب الذين تحدثت عنهم جدتاي، وليتّسع كذلك لمقطورات المناسف والأطعمة والأشربة الكثيرة...

الطبول والدفوف تُدَق في الشارع، وفي نفوس أفراد عائلتنا السعيدة. التجهيزات تجري على نحوٍ جيدٍ جدًّا، كانت السعادة تملأ زوايا منازلنا وأزقّة شوارع مخيَّمِنا. يقعد جدي، ثم يجذب جدّتي إليه فيُقعِدها جانبه، فيجتمع حولهما أولادهما الثلاثة عشر، وأحفادهما الأربعين! نبقى هكذا ساعاتٍ وساعات، نتماوج بين

الضحكات ونسرح في الحكايات، ننتقل من الجِدِّ إلى المزاح ومن المزاح إلى الجِد. كانت بيوتنا كبيرةً تحتضن مشاعرنا العظيمة بالأنس والسعادة، وتحوي فرحتنا كلَّ ليلة زفاف، وفي ليالي الأعياد.

على سيرة الأعياد، للعيد عندنا طقسٌ فريد. ينام الأحفاد في منزل العائلة الكبير، وصباح العيد نزور المقبرة كأننا نقول لمَن فقدنا من أقرباء وأصدقاء وجيران: (لا تقلقوا، لم تزل ذكراكم محفورةً على قلوبنا، أمكنتكم محفوظة على طاولة الطعام، كَنَبَتُكم المريحة أمام التلفاز لم تزل تتذكركم...).

.

.

هكذا كانت طقوس عائلتنا حتى أتى النصف من حزيران!

صباح ١٥ حزيران ٢٠١٢

جاءنا تاريخ (١٥ حزيران – ٢٠١٢) مُحَمَّلًا بالوجع، لكننا لم نكن نعلم ما تخفي لنا الأيامُ من أوجاعٍ وما تُكِنُّه من آلام وأحزان...

كان صباحًا طبيعيًّا، كأي صباح، استيقظنا فجهزّنا الفطور، وما لبثنا أن انتهينا من الأكل حتى فاحت رائحة القهوة، فقام أبي عن طاولة الطعام وتَتَبَّعَ ركوة القهوة التي تحملها أمي. لكنّه، لأول مرة، لم يشرب قهوته مع أمي، فاكتفى بفنجانٍ واحدٍ حملَهُ إلى محلّه الموجود على الشارع العام في المخيم.

كان اليومُ يمضي بشكل طبيعي؛ الأطفال يستمتعون بعطلتهم الصيفية فيلعبون الألعاب غريبة الاسم،

ويركضون باندفاع كالماء في نهر المخيم، والجيران على شُرفات المنازل يأكلون البطيخ الأحمر ليطفئوا به حَرَّ الصيف. إنها أجواء صيفية بامتياز!

لكن سرعان ما انقلبت الحياةُ بفصولها ضدنا!

تحولَ الصيفُ إلى خريفٍ مُرٍّ، تساقط فيه أبناؤنا وأحباؤنا شهداء كأوراق الأشجار بعد أن هَبَّتْ علينا ريح الموت من كل جهة. رافقَ خريفُ حياتِنا شتاءٌ قاسٍ، وكأنّ مخيمَنا كُتِبَ عليه أن يبقى محطةً للتناقضات والنكبات والنكسات، وكأنّ ندبات الحزن والفقد والتشرّد أقسمَت لتُبيدَنَّ أحلامنا وطموحاتنا!

انقلبَ وجهُ المخيمِ المليح إلى وجهٍ ضبابيٍّ قاتمٍ، فتحولت سماء المخيم من الصفاء إلى الضباب، وصار الجوُّ فوضويًّا.

كنتُ جالسةً في المنزل، أنا وأمي وأختاي (مروى وجنى)، نشاهد الفساتين التي اشترتها أمي ونبدي آراءنا بها ونتعارك فستان مَن مِنا هو الأحلى والأكثر (شياكة)!

وبينما نحن في غمرة هذه السعادة، إذا برشقات رصاص كثيفة يُسمع صوتها في المخيم كله.

دفعنا الفضول لمعرفة ما يجري إلى الخروج إلى الشرفة، فصارت أمي تسأل الرائح والغادي ولا مجيب!

كان الشارع مكتظًّا بالناس، والفوضى تملأ المخيم، وبعد دقائق جاء أبي مسرِعًا يسأل بلوعة الأبِ:

– أين خالد؟؟ لم أجد له أثرًا!

هرعت أمي إلى الشارع، وأرسل أبي بعض الشباب كي يبحثوا عنه، وبعد أن وجدوه أجلسه أبي في حِجْرِهِ، وما زال يردِّدُ قائلًا له:

– ممنوع أن تغيب عن عيوني!

وكعادة الناس، يلعبون بأعصاب الناس، فانتشرت الإشاعات والأخبار غير الصحيحة!

لكنّ حقيقة الأمر كانت أنّ أحد شباب المخيم تعارك مع الحاجز الذي عند المدخل، بسبب أوراق ثبوتية أو أوراق

تخص دراجةً نارية. كان من الممكن أن يقتصر الإشكال على بعض الشتائم، بيد أنّ الشباب تعرضوا للضرب!

ولمّا كان التضييق على المخيم في أعلى مستوياته انفجر الشبابُ بعد أن ضاقت عليهم الظروف الاقتصادية والاجتماعية، وتعبت صحتُهم النفسية نتيجة الخوف على مستقبلهم الذي لا يُعرف له مصير!

ثار الناس، عمّتِ الفوضى، أخبارٌ عن تعزيزات أمنية وعسكرية حاصرت المخيم، وكما قال الناس حينذاك: (الضرب مش ضرب صحاب)، أي هذه المرة ستكون أسوأ من سابقتها.

عاد الرصاص بوتيرةٍ أشد وأسرع، أغلق أبي محله ثم أتى إلى البيت مُصطحِبًا وحيدَه (خالد). وما هي إلا ساعتين أو ثلاثًا حتى أتى خبر إصابة ابن عمتي (محمد).

بحث عنه أبي بين المصابين في مستشفى الهلال الأحمر الفلسطيني، كان المصابون ينبعون من الأرض، رآهم أبي يرصفون الشارع بعد خروجه من البيت على الرغم من أنَّ التجوال ممنوع! بيد أنّ أبي خاطر فخرج متسلِّلًا

وسأل الناسَ، كلَّ من يلتقيه في الشارع عن مصير ابن عمتي، لكن لا خبر!

وكما قلتُ: انتشرت الإشاعات والأخبار غير الصحيحة. هذا ما حدث مع ابن عمتي، فهو لم يُصَبْ، إلا أنه فقد وعيَه وهو هاربٌ من الاعتقال؛ لأن الأمن كان يعتقل الكل سواء مَن هو متورّطٌ أم مَن لا علاقة له، وبعد ساعات اتّضَحَ أنه موقوف.

رائحة الموت انتشرت في شوارع المخيم، الفقد بسط أجنحتَهُ الكئيبةَ عليه، فسقطت ورقةٌ من شجرة الطمأنينة في خريف القلق والخوف... استُشهِدَ الطفل (أحمد القاسم)!

كان طفلًا حالمًا مجتهِدًا في عمله، وُلِدَ لعائلةٍ متواضعة، ترك صفوف الدراسة فتسرَّبَ إلى سوق العمل فعمل في توزيع المياه للمنازل ليُعيل عائلته المؤلَّفةَ من الأم وأخٍ وأختٍ في تأمين قوت يومها الذي يحارب من أجله شباب المخيم ولا يكادون يحصّلونه!

كان (أحمد) أصغر إخوتِه، لكنه كان حنونًا عليهم كما لو أنه أبوهم! وكأي طفلٍ يفرح في يوم عطلته الوحيد من المدرسة أو العمل، خرج (أحمد) إلى الشارع ليلعب مع رفاقه مرتديًا ثيابه الجديدة التي اشتراها من آخر راتبٍ تقاضاه بعرقِ جبينِه. وكعادته كلما يقبض راتبًا، دعى رفاقه إلى القهوة، وبينما هو يحمل فناجين القهوة بيديه، وقع الاشتباك، فإذا بالرصاص ينهال على الشارع والبيوت من كل جانب، فرمى (أحمد) القهوةَ واحتمى داخل مبنىً، تكوّرَ على نفسه، وضع إصبعيه في أذنيه لئلّا يسمع تلك الأصوات التي تسلب الإنسانَ طمأنينتَه، ولمّا هدأ الرصاص قليلًا أخرج رأسه من باب المبنى يسأل: (هل انتهى إطلاق النار؟)، فإذا برصاصةٍ غدّارةٍ تدخل يمين رأسه وتخرج من شماله فتفجِّرُ دماغَه، لم يحتوِه الوطن، ولا المنفى، ولم يعطف عليه المتحاربون... حنا عليه جدارٌ قاسٍ احتمى الصبيُّ خلفَه، فاحتضن دماءه التي تدفقت كنبعٍ غزير – نبعٍ من العِزّة والبراءة –.

راعَ الناسَ ما حدث!

ركضوا إلى الصبيّ مسرِعين مصدومين، بجنون، انفجرت النفوس التي كانت تحترق على نار التشديد الأمني، فانتفض المخيم وثار الناس فأشعلوا الإطارات ونصبوا الخِيَام، وسارت المظاهرات في شوارع المخيم!

شوارع المخيم أصبحت مُعَبَّدَةً بأجساد الأطفال والشباب والشيوخ، جميعهم يصرخون غاضبين رافضين أن يدفنوا الطفل قبل أن يثأروا له!

ثلاثة أيام من مَدِّ الغضب وجزْرِ الوجع، لم يكفَّ الشبابُ عن التظاهر، ولم تكفَّ الجدران عن البكاء على الطفل (أحمد القاسم)، وكأنّ الثورةَ ثورتان: ثورة البشر وثورة الحجر!

أصبح المخيمُ محاصَرًا بالموت والفقد والوجع واللجوء... لا غذاء ولا مستلزمات طبية! وعلى الرغم من الحصار الأمني الخانق، استطاع أهالي مخيم البداوي إدخال المساعدات إلى المتظاهرين لحَثِّهم على الصمود، بيد أنّ الحصار لم يقتصر على الحصار الأمني الذي منع دخول المواد الغذائية، بل كان حصارًا فرضَ على الأحداث داخل المخيم تعتيمًا إعلاميًّا غير مسبوق!

لم تدخل أي وسيلة أو قناة تلفزيونية المخيمَ لسؤال الناس عمّا يعانون، راح دمُ الشهداءِ سُدى، فما كان من أمِّ الطفل (أحمد القاسم) إلا أنْ لملمتْ دموعَها، وخبَّأتْ وجعَ قلبِها... لكنها لم تستسلم... بل توجهت إلى خيمة الاعتصام!

وقفتْ وقفةَ عِزٍّ وشموخ، لا ذلٍّ وخضوع! فهي أمُّ الشهيد. وشرعتْ تحدّثُ المتظاهرين ناصحةً إياهم، قالت:

– لا نريد مزيدًا من الدماء، هذا ابني راح سُدى... ضاع منّي بلمح البصر! دعوا فكرةَ دفنِه في أرض صامد... أكرموا مثواه فادفنوه غدًا في مقبرة خالد بن الوليد. لقد مرَّ على استشهاده ثلاثة أيام، هي ثلاثة أيام من القلق والغضب والتوتر... فأكرر طلبي إليكم: أكرموه وادفنوه لأن "إكرام الميت دفنه".

.

.

كلمات الأم المفجوعة هدّأَتْ ثورةَ الناس، ورَقَّقَتْ دموعُها قلوبَهم، وغلب دخانُ قلبِها المحترِقِ دخانَ

الإطارات المشتعلة، فما كان من الناس إلا أن قالوا لها بصوتٍ واحد: (كلنا أبناؤك وأنتِ أمُّ الجميع!).

وحُدِّدَ الدفن في ١٨ حزيران ٢٠١٢.

١٨ حزيران ٢٠١٢

في هذا اليوم بُتِرَتْ أجنحةُ أحلامنا، وتحوّلَ الأمل في أرواحنا إلى رماد، وحدائق منازلنا التي تملؤها الأزهار طيبةُ الرائحة والورود الندية أصبحتْ صحارٍ من الحزن والأسى...

عصفت ريح الموتُ في ربيع حياتنا، فجعلتنا نعيش خريفًا قاسيًا من الوجع، اقتحم الألم شوارعنا ومنازلنا، واستُبدِلَتِ الآهات والصرخات بالزغاريدِ والأغاني!

زغردةٌ واحدةٌ لم نفقدها، هي زغردة أمهات الشهداء. كانت أمّ الطفل (أحمد القاسم) تزغرد وتنثر عليه حبات الأرز البيضاء، والنساء يرمينه بِبَتَلَات الأزهار التي قطَفْنَها من حدائق منازلهِنّ.

ولأول مرة يبقى أبي في المنزل، كان هذا صباحَ تشييع الطفل الشهيد، وعلى الرغم من كل ما يجري من أحداثٍ مؤلِمةٍ ومقلِقة لم يزل أبي كما عهدناه؛ يترك ما يجري بالخارج للخارج، ويجمعنا حوله فيحدّثنا ويلاعبني وفي

الوقت ذاته يلاطف أختي ويمازح الأخرى ويلقّن أخي دروسًا في التربية والدين والوطن. كان أبي بمثابة هيئة دولية لحل النزاعات، فبعد أن فرغنا من الفطور، اختار كل واحدٍ منا طبقًا للغداء يختلف عن اختيار الآخر، ولمّا وقع اختيارُ أبي على (اللحم بالعجين) وافقنا جميعنا.

أنهى أبي القهوة، ثم ذهب إلى السوبرماركت فاشترى أشياءً كثيرةً، أشياءً نعرفها وأخرى نراها لأول مرة، أشياءً نحتاجها وأخرى لم يسبق أن استعملناها في مأكل أو مشربٍ... وعلى رأس قائمة المشتريات، كانت الشوكولا باختلاف أنواعها ونكهاتها وأصنافها.

قالت له أمي بعد أن هالَها مشهدُ المشتريات:

– ما حاجتنا إلى هذا كله يا رجل؟ المخيم مقفَلٌ أيامًا معدودة.

نظرت إلينا جميعًا، ثم قالت بلهجةٍ غير متأكدة كما لو أنها تعرف أننا مقبلِين على أيامٍ عصيبة... أو شهور! قالت:

– نحن لسنا في حرب!

أما أبي فاكتفى بالقول:

– لا نعرف ما قد تؤول إليه الأمور، الأهم ألا يكون ثمة شيءٌ مفقود في البيت.

تغدينا، فتهيّأ أبي لقيلولة ما بعد الغداء، لم يكن ينوي الذهاب إلى جنازة الطفل (أحمد القاسم)، فهو بحكم

انشغاله وظروف عمله يتنقل كثيرًا، لذلك ليس معتادًا على الذهاب في الجنازات، غير أنّ شيئًا ما في داخله أيقظَه، شيئًا يسوقه إلى قدره.

ارتدى أجمل ثيابه، تعطَّرَ فامتلأ البيت برائحة عطره، شرب فنجان قهوة، ثم قرر أن يذهب إلى الجنازة لأنه يعزُّ عليه أن يرحل فتىً بعمر الزهور مغدورًا... ومظلومًا! ومنذ استُشهد أحمد، لم يفارق أبي صداع الرأس، لم يفتأ يشعر بتوترٍ يربِكُه ويسلبه تركيزَه.

أغلقت المحال التجارية أبوابها، بدأ الحداد والإضراب الشامل في المخيم، وُزِّعَتْ يافطات كبيرة تحمل صورة الشهيد مرفَقةً بعبارة: "كلنا إخوان الشهيد أحمد القاسم".

خلت خيمةُ الاعتصام من الناس، ذهبوا جميعًا ليحضروا الشهيد من مخيم البداوي ويزفوه في مخيمِه، هو نفسه الطفل الذي لبس ثيابه الجديدة ليفرح مع أصدقائه يأتي إلى أمهِ مُكَلَّلًا بدمائه!

اجتمعت عائلتنا في منزل العائلة، الكبار والصغار، الرجال والنساء، وكانت ركوة القهوة محل النزاع بين أبي وعمّتي (منال)، فأمسك الركوة بيديه المشَقَّقَتَيْن من تعب الحياة، ولمّا رأى أنها فارغة قال لعمتي:

– كالعادة! شربتِها كلها يا منال ولم تتركي لي ولو فنجانًا واحدًا.

ضحك، ثم قال أيضًا:

– بالله عليكِ يا منال أعدّي لي ركوةً جديدة.

– ما حاجتك بالقهوة يا ولدي يا فؤاد! طبختُ البرغل بالبندورة وخبأتُ لك حصتك. (قالت جدتي).

ردّ أبي بابتسامة إنسانٍ خالٍ من الهموم، وقال:

– ألف شكرٍ لكِ يا أمي، خبّئيها لي للعشاء من فضلك ولا تسمحي لأحدٍ أن يقترب منها.

ثم نظر إلى عمتي (منال)، وابتسم ابتسامةً ماكرة، وتابع كلامه فقال:

– انتبهي من منال.

وفي خضمّ هذا الحوار المُحتدِم، وصلت عمتي (منتهى) منهكةً من العمل. كانت مستاءةً فبدأت بالحديث منذ دخولها عن نهارها في العمل، فبدا الانزعاج والاستياء واضحَيْن في تعابير وجهها إذ يتجعّد جبينهـَا مرةً، ثـم تنقبض شفتاها.

أما عن سبب انزعاجها فكان، على حد قولها، أن صديقاتها يؤَيّدْنَ التصعيد من قبل الشباب في المخيم، لأنهنّ يؤمِنَّ بنظرية (إذا ما كبرت ما بتصغر)! أما هي فكانت متأكدةً أنه إذا سال دمٌ إضافي في المخيم، سيكون دم إخوانها وأصدقائها وجيرانها...

يا لوجعكِ يا عمتي... كأنكِ كنتِ تعرفين أنّ إخوتك سيسقون المخيم من دمائهم... كأنكِ تعرفين أنّ واحدًا من إخوتكِ سيكون عريسًا جديدًا في ثُلّةِ الشهداء!

وقبل أن تذهب عمتي (منتهى) إلى منزلها المجاور لمنزلنا، احتضن أبي ابنتها (لانا) بقوةٍ وعاطفة كبيرة، على مبدأ (ما أغلى من الولد إلا ولد الولد)، فهو كان شديد التعلق بعمتي وأولادها الثلاثة.

استعد الشباب للذهاب إلى تشييع الطفل (أحمد القاسم)، أما أبي فأوصى عمتي (منال) أن تعدَّ له ركوة قهوة جديدة ريثما يأتي، واستحلفها ألا تشرب منها ولو رشفةً إلى حين قدومه، ثم ضحك وقال لها:

– أريد أن أشرب أول فنجانٍ منها.

لم يكن تشييع أحمد حِكرًا على الرجال دون غيرهم، فاجتمعت النسوة والجارات على رأس الشارع لمشاهدة مراسم التشييع، كانوا يمسكون بأيدي بناتهنّ وصبيانهنّ، ووسط تلك الحشود الغفيرة كان أصدقاء الشهيد أحمد يذرفون دموعًا خاشعةً ويردِّدون مع الناس: "الله أكبر"، والأعلام الفلسطينية تتماوج في السماء، ترافقه زغاريد النساء الباكيات، وحبات الأرز التي تُرمى من شرفات المنازل.

وعلى الرغم من هذه الحشود، كان أبي يمشي وحيدًا هائم الفكر مسرِعًا كأنّ يدًا تدفعه لملاقاة قدره، كأنه كان يعلم ما سيحصل، نادته عمتي منال فلم يُجِبْها، فوكزتْ أمي وقالت لها:

– ما به فؤاد ناديتُه ولم يجبني؟

– زحام الناس وضجيجهم يا منال، ربما لم يسمعكِ.

نادته عمتي من جديد، وقالت له:

– انتبه إلى الشباب، الحماس والغضب هما المتحكِّمان بسلوكهم الآن.

أومأ أبي برأسه من دون أن ينطق حرفًا، ثم تابع مشيَهُ شاردًا مثلما كان...

وما هي إلا لحظات حتى سُمِعَ صوت إمام الجامع وهو يقول:

– استهدوا بالله يا شباب.

ثم وُضِعَ شَبَكٌ حديدي أمام مستشفى الهلال الأحمر لمنع المشيعين من اختراقه.

وصل المشيعون إلى المقبرة، فانقلبت ليونتُهم التي ظهرت أمام أم الشهيد قسوةً وغضبًا جارفًا، كأنهم ما لانوا أمامها إلا لتهدئة ثورتها هي قبل ثورتهم، وللتخفيف من ألمها وحُرقتِها على صغيرها.

انقسم المشيعون، قسمٌ يريد إدخاله إلى المقبرة وقسمٌ يرفض! وفي خضم الانقسام، كان التابوت يتماوج وينتقل من يدٍ لأخرى، وإمام الجامع يقول:

– لا تفقدوا صوابكم، أدخلوا الشهيد إلى مثواه الأخير.

غير أنّ المشيعين تابعوا محاولاتهم إلى حين اختراق السياج الحديدي، وبعد ذلك أدخلوا النعش إلى المقبرة. غير أنّ ثورة غضب الشباب لم تهدأ، فقفزوا فوق جدار مستشفى الهلال الأحمر، وحاول بعضهم التخلص من السياج الحديدي، ثم دخلوا هاتفين عبارات الصمود، وبدأ فجأة إطلاق القنابل المسيِّلة للدموع عليهم!

بدأ الأمر يزداد سوءًا، أمسكت الفتيات بعباءات أمهاتهنّ، وركضنا خائفين إلى منازلنا، وارتدت السماء حينذاك ثوبًا رماديًّا كئيبًا، إنه دخان القنابل! ثم اختلط بدخان الإطارات المشتعلة، فأصبح الناسُ في هرجٍ ومرجٍ ومنهم مَن فقد الوعي واختنق.

وسط هذه البلبلة، راعَنا رؤية جارتنا الحامل تختنق. يا لمصيبتنا! روحان في جسدٍ. فما كان من أبي إلا أن جمع

جدي وأعمامي وأبنائهم، اجتمع حوالي خمسةٍ وعشرين شخصًا يحملون اسم عائلتنا، فاطمأنّ أبي عليهم جميعًا، ثم جهّزَ السيارةَ ليُسعِفَ المرأة وجنينَها، وبعد لحظات جاءته عمتي منال وقالت:

– لقد صحتْ يا أخي، تعال فاشرب القهوة التي أعددتُها لك.

على الرغم من كل الجراح والفوضى التي عمّتِ المخيم، كان الشغل الشاغل لعمتي (منال) أن تفيَ بوعدها لأبي.

لم يلحق أبي أن يغلق باب سيارته حتى رأى صبيةً أعمارهم دون السادسة عشرة يتجهون إلى شارع (صامد) الذي أُغلِقَ ومُنِعَتْ جنازة الشهيد (أحمد القاسم) من المرور منه!

فلحقهم أفراد العائلة، أمسكوا بهم جميعهم باستثناء

واحدٍ كان مشاكسًا جدًّا وعنيدًا، إلا أنّ أبي نجح بالتقاطه، فنظر إليه نظرةً حادةً وقال له بنبرةٍ غاضبةٍ فيها من الرِّقَّةِ شيءٌ عظيم:

– اركض إلى البيت، هل تريد أن تحرق قلبَ أمك عليك؟!

رجع عددٌ قليلٌ من الصبيةِ، بينما تمرّدَ الآخرون وتابعوا تقدمهم، فلحق بهم أفراد العائلة ليدافعوا عنهم ويحاولوا من جديد ثنيَهم عمّا يفعلون.

كان أكبر همّ البالغين أن يطفئوا نار الفتنة التي تتعاظم ساعةً بعد ساعة، وما لبث شباب العائلة أن حوصِروا خلف منزل مهجورٍ، وسط ساحة المعركة، عند مستوصف بيت المقدس.

وبينما أنا أرى ما يحدث حولي من ثورةٍ وقتال وتمرّد، شعرتُ بي كأني طفلة وحيدة تسير تحت المطر، حافية القدمين في ليلةٍ من ليالي ديسمبر، وتحفر الحجارةُ أقدامها.

هكذا كنتُ، لا أسمع سوى الصرخات التي تزداد وتيرتُها فتمزّقُ داخلي، فإذا بشيءٍ في صدري يتهافت ويركض ويعلو ويهبط ثم... ثم ازدادت وتيرة إطلاق النار! لم تدع الرصاصاتُ حجرًا من أحجار تلك البيوت المهجورة منذ حرب (٢٠٠٧) إلا وحفرته، وكان عمي (أيمن) وزوج خالتي (أسامة) مختبئَيْن خلف تلك الأطلال التي تستحق أن يُبكى عليها!

كان عمي أيمن وزوج خالتي أسامة أول الناجين من بين المحاصَرين، نجوا لكنهم لا يعلمون مصير أحدٍ من الذين بقوا تحت الرصاص. كان الصدمة باديةً على وجهَيْهما الشاحبين وعينيهما الشاخصتَيْن، لكنهما لم ينبسا ببنت شفة، بيد أنّ قميصَيْهما الملطَّخَيْن بالدم رَوَيَا حكاية الوجع كلَّها.

مَرَّ أمام عينَيَّ عمي (أحمد) رافعًا يدَيْه ليؤكِّدُ أنه مسالِم. كان يركض والرصاص يحفر الأرض تحت قدميه، ويصرخ بحُرقة:

– كُفّوا عن إطلاق الرصاص، هؤلاء أولاد أبي عمار!

ولكن صراخه كان من دون جدوى...

كان الرصاص يهطل من السماء، وينبع من الأرض، هرعتْ أمي لتبحث عن أبي فكانت، بكل خطوة، تتعثر بجريحٍ من العائلة!

رأت أول ما رأت عمي (محمد) يتصبَّبُ دمًا، ولمّا حاولت إسعافه صرخ قائلًا:

– اتركوني... فؤاد فؤاد...

ثم رأت أمي أحد أقاربها أيضًا، ولما حاولت إسعافه انتبهت إلى يدها وقد تلطخت بدمٍ كثير بعد أن دخلت في جرحِهِ!

بعد حوالي نصف ساعة، جاءت البوسطة لنقل الجرحى إلى المستشفى، فالتفتُّ من حولي ولم أجد أمي، والرصاص يتكاثر ولا يهدأ لحظة، كان الجميع يخشى الإصابة فيحاول إسعاف جريح ثم يتردد ويتراجع، بيد أن أمي لم تبالِ، فإذا بيدٍ تسحبها من عباءتِها، ثم تسمع صوتًا يقول:

– ارجعي وإلا ستموتين...

ولمّا سكن الرصاص، عاد بعض أفراد العائلة إلى المنزل، وبدأت الأسئلةُ:

أين فؤاد؟ أين أمين؟ أين خالد؟

وأنا كنتُ شريكتهم بالحيرة والقلق، فكنتُ أسأل كذلك: محمد وابن عمّهِ نُقِلُوا إلى المستشفى، إذًا أين أبي؟ أين أمين؟ أين خالد؟

أبي شهيد وأعمامي جرحى

هدأ صوت الرصاص، ودوّى صوت صافرات سيارات الإسعاف، إذ لم يُسمح لغيرها بالاقتراب من أرض المعركة، فوقعت عيناي على قَدَمَيْ أبي خارجتَيْن من سيارة الإسعاف، فعرفنا أنه مُصاب.

وبعد لحظات وصل جدي مصابًا بشظايا في يده، ينزف دمًا وخيبةً، فحتى كبير العائلة كان ضحيةً لهذه الحرب التي سلبتنا سكينةَ حياتنا جميعًا!

كان جدي يبحث بين تلال الجرحى عن أولاده، على الرغم من أنه كان يؤمن أنَّ أحدًا منهم لم يُصب بأذى، "إنهم اختنقوا من الغاز فقط"؛ كان يردِّدُ هذه الجملة.

أبي وأعمامي كانوا هدفًا لفوهات البنادق، ومع ذلك لم يترددوا لحظةً في حماية الأطفال الصغار، ولم ينتظروا من أحدٍ أن يحميَ ظهورهم، فحموا الأطفال ولم يجدوا مَن يقيهم الرصاصات التي تسلب الإنسانَ روحه، فإذا بهم جرحى يفترشون أرض المخيم ساقين إياها بدمائهم.

أُصيب أبي، ركض عمي (أمين) ليكون درعًا له، فأصيبَ! عندها حاول أبي، على الرغم من جرحه ووجعه، أن يبدل الأدوار فأصيبَ بالرصاصة القاتلة!

كلما اقترب أحدٌ من عمومتي ليحمي الآخر، أصيبَ فسقط فوق جريحٍ سبقه! تحوّلَ عمومتي وأبناء عمومتهم إلى تلةِ جرحى!

هذه الفاجعة دفعت بشباب العائلة، مهندسين وإعلاميين وعاملين في هيئات المجتمع الأهلي والمدني، إلى التنسيق مع الجهات اللبنانية لمساعدة النازحين في حرب المخيم السابقة.

وأنا في خضمِّ هذه الصدمة، رأيتُ أمي وجدتي تركضان، فركضتُ معهما مع أني لا أعرف إلى أين كانتَا تركضان! والناس، كبارًا وصغارًا، والأمهات جميعهنّ، يبحثون عن أولادهم وأقاربهم وأصدقائهم، رائحة الدماء ملأتْ أنوفَهم، ومشهد الموت أعمى عيونهم، لكنهم ما زالوا يقاومون على الرغم من الوجع والفقد، كشمس الأصيل إذ تغرب ويلتهما المدى وهي لم تزل تعطي الضوء إلى عالمٍ أظلمتْهُ الأنانية!

شوارع المخيم أصبحت مُعَبَّدَةً بأجساد الجرحى والشهداء، فأخذنا نبحث بينهم عن أبي، وعن عمي (أمين)، وجدتي تصرخ وتقول:

– أولادي... أحباب قلبي وروحي!

– أفسحوا الطريق معنا جريح بحالة خَطِرَة جدًّا! (قال ممرِّضٌ).

– أمين، أمين يا ولدي (صرخت جدتي لمّا رأت عمّي أمين مضرجًا بدمائه).

كان مشهد عمي أمين، وهو ملفوفٌ ببطانيات وشراشف تقطر دمًا، قاسيًا ومُرَّ الوقع على جدتي، فما استطاعت أن تفعل شيئًا سوى البكاء.

أما أبي، بقي مفقودًا!

دخلنا إلى المشفى نبحث عنه بدموعٍ خائفةٍ وراجيةٍ في الوقت ذاته، راجين اللهَ ألا نجده! ولكن حصل ما كنا نخشاه، وجدته أمي في الممر، كان نائمًا نومتَه الاعتيادية: يده تحت خدِّه، عيناه مغلقتان ومع ذلك تنبضان بالحياة والأمل، ظنّتْ أمي أنه اختنق بسبب قنابل الغاز، فاقتربت منه ولمست يده، فإذا بها باردةٌ جدًّا على الرغم من حرارة الطقس! لكنّ أمي طردت فكرة أن يكون ميتًا من فكرِها، وتمسّكت بالأمل حتى الرمق الأخير!

– هو يشعر بالبرد ليس إلا! (قالت أمي وهي تحاول أن تصبّرَ نفسَها).

ثم لاحظت بقعة دمٍ على قميصه من جهة البطن، تقدّم عددٌ من الممرضين فنقلوه إلى سيارة الإسعاف، معهم سامي (ابن عم أبي وصديقه المقرَّب)، فسألته أمي:

– ما به فؤاد لا يجيب؟!

– هو بخيرٍ لا تقلقي، ابحثوا عن خالد ثم اذهبوا إلى البيت وأنا أوافيكم بالأخبار. (قال سامي والدموع على خدَّيْه).

ثم ركض سامي إلى سيارة الإسعاف، فحاولنا أنا وأمي وجدتي اللحاق بها لكن سرعان ما اختفت. في هذه الأثناء كان الرجال يفرغون شاحنة (بيك أب) مُحَمَّلَةً بالجرحى، فوقفت أمي وسط الجمع، صرخت وقالت:

– زوجي جريح!

ثم جلست على الكرسي الأمامي، وأجلستني في حِجْرِها، وقبل أن نصل إلى الحاجز اعترضنا مجموعةٌ من الناس يركضون مضطربين، أوقفوا الشاحنة وسألوا السائق:

– هل معك مكان لجريح؟

– الشاحنة ممتلئة!! (ردَّ السائق).

فنزلت أمي وعادت أدراجها إلى البيت كي تترك مكانها للجريح الجديد. كانت أمي خائفةً جدًّا، ومع ذلك كانت تواسيني قائلةً إن أبي بخير، سيداوون جراحه ثم يأتي إلى المنزل. وبفعل الاضطراب الذي كانت تعيشه أمي، كانت تدخل في شارع وتخرج من آخر، لقد أضاعت طريق البيت، وهي التي وُلِدَتْ في المخيم!

أثناء هذا الضياع والتخبط، صادفنا زوج خالتي، فسأل أمي والصدمة باديةٌ في عينيه الشاخصتَيْن:

– ما الذي أخرجكما من المنزل في هذا الوضع؟!

أجابت أمي والدموع تنهمر على خدَّيْها:

– أُصِيبَ فؤاد، لم يسمحوا لي أن أرافقه في سيارة

الإسعاف، ضيعتُه وضيعتُ طريق المنزل!

فذهب بنا إلى منزل العائلة، وجدنا هناك جدتي التي كنا قد أضعناها أيضًا، وجدنا جيراننا وأقاربنا...

كان باب سيارة أبي مُشرعًا، والمفتاح داخلها، طاولة السفرة تفتقد اللمة العائلية الحنون، ركوة القهوة والفناجين يفتقدون أحاديث خالاتي وعماتي وأصدقائهن!

صعدتُ مع أمي إلى المنزل لنطمئنَّ عن أبي، وبعد عشر محاولاتٍ فاشلةٍ للتواصل عن طريق الهاتف، جاء الردّ!

– فؤاد فؤاد!!!! (صرخت أمي)

ردَّ عليها صوتُ رجلٍ غريب قائلًا:

– لا حول ولا قوة إلا بالله، أنا لستُ فؤاد، وجدتُ الهاتف في الطريق، أعطيني العنوان كي أوصله لكم.

لم يكن أبي الوحيد المفقود، أخي خالد أيضًا – الشاب الصغير ومدلل أبيه – فقدناه حين كان يبحث عن والدِهِ بين ذلك الكم الهائل من الجرحى والمصابين...

ثم أتى عمي (عماد)، ما لبث أن دخل حتى هرعت إليه جدتي وقالت له بحُرقة الأم على وليدها:

– أركضْ يا عماد إخوتك راحوا من أيدينا.

وبدأت رحلة البحث من جديد، ركب عمي السيارة وركبت معه جدَّتايَ الاثنتان. أجرى عمي اتصالات كثيرة، معظمها لم يسمن ولم يغنِ من جوع، جل ما توصلنا إليه أنَّ محمد مُصاب لكن لا أحد يعلم إلى أي مستشفى نُقِل، أما أمين فقد نقلوه إلى المستشفى الإسلامي ووضعه حَرِج وهو تحت العملية.

توجهنا إلى المستشفى الإسلامي، وجدنا عمي (أحمد) بقامته الشامخة يفترش الأرضَ، كان يبكي ويواسيه قريبُنا (سامي)، الشخص الذي رافق أمين في الإسعاف، فانهارت جدتي أكثر!

في هذه الأثناء، جاء اتصال لعمي (عماد)، مكالمةٌ مدتها كلمة واحدة قالها عمي: (حسنًا)، وادّعى أنه اتصال غير مهم، وقال:

– أنا ذاهب إلى الهلال الأحمر لأبحث عن فؤاد، مكوثي هنا لا يجدي نفعًا.

مستشفى الهلال الأحمر يقع في البداوي، لكن ما فاجأ جدَّتَيَّ اللتَيْن رافقَاه أنه حين وصل إلى البداوي ذهب إلى

بيته الذي يقع في اتجاه معاكس لاتجاه الهلال الأحمر! ففزعَا وتأكدَا أن أبي قد أصابه مكروه ولكن... أين هو؟!

كان يُجرح مَن يُجرح، ويُستشهد مَن يُستشهد، ونحن لا نعلم بأحدٍ بسبب انقطاع إرسال الهواتف. لذلك، انتشرت الإشاعات بين الناس في المخيمات، وضجّت مواقع التواصل بصور الشباب المطروحين أرضًا، ذاك تفجّرَ رأسه بفعل رصاصة اخترقت جمجمتَه، وآخر خرجت أمعاؤه من بطنِهِ، وكان الجميع غير قادرٍ على الاقتراب من الجرحى.

(أمين)، شابٌّ من المخيم يقع بيتُه على طرف المخيم، انتشرت شائعةٌ تقول إنه قُتِل، غير أنه أُصيبَ فقط، وعلى الرغم من إصابته نجح بالمشي خمسة أمتار أو ستة، ثم فقد الوعي، فأسعفه شباب الهلال الأحمر الفلسطيني. فبدأ الناسُ يجتمعون في منزله ليعزوا أهله،

لكن بعد عودة الاتصالات عرف الناسُ أنه مُصاب ووضعه خطير، لذلك امتنعت المستشفيات عن استقباله! فاستقبله المستشفى الإسلامي، ليخضع

بعدها لعمليةٍ استغرقت ستَّ ساعات كانت نتيجتها استئصال ستة أمتار من أمعائه!

عادت الاتصالات، الهواتف جميعها ترن، الأخبار تنتقل بين الناس كالنار في الهشيم، وبعد اتصالات كثيرة من عمتي (نهى) أجابتها عمتي (منتهى):

– اركضي يا نهى، إخوتك مصابون، رصاص حي فتك بأجسادهم، لا أثر لهم ونحن محاصَرون. فؤاد، محمد، أمين جميعهم خرجوا من المخيم مصابين موزَّعين على المستشفيات ونحن لا نستطيع الذهاب إليهم بسبب الحصار. سألنا كثيرًا لكن لم نحصل على جواب يطفئ نيران خوفنا وقلقنا، يُقال إنهم نُقِلُوا جميعًا إلى مستشفى الهلال في البداوي...

فما كان من عمتي (نهى) إلا أنْ خرجت من بيتها خائفةً مذعورةً، كانت مرتبِكةً وتمشي بخطوات ثقيلةٍ إلى مستشفى الهلال، ولحقتها خطيبة عمي (محمد)، وما إنْ

وصلت عمتي إلى المستشفى حتى وجدت عمي (أمين) يحمله الشباب، فاعترضتهم وسألتهم بلهفة الأخت على أخيها:

– إلى أين تذهبون به؟!

– سنأخذه إلى المستشفى الإسلامي.

– وأين فؤاد ومحمد؟؟

– هما إمّا في الإسلامي أيضًا أو في مستشفى الخير.

ولاختصار الوقت، انقسموا إلى فريقَيْن؛ فريق ذهب إلى الإسلامي، وفريق ذهب إلى الخير. وبدأت عملية البحث الموجِعة، عندما وصلوا إلى مستشفى الخير شاهدوا منظر الجرحى المريع، كان المستشفى كأنه حي من أحياء المخيم، المصابون داخله جميعهم أبناء المخيم.

التقت عمتي بصديق زوجها الذي يعمل ممرّضًا، فجاء إليها مُسرِعًا وسألها:

– ماذا تفعلين هنا؟!

أجابت عمتي راجيةً أن يكون ذلك الشخص هو مَن

سيدلها إلى مكان إخوتها:

– أبحث عن أولاد أبي عماد (محيي الدين لوباني)، إخوتي مصابون، عثرتُ على واحدٍ منهم ولم أزل أبحث عن الباقين!

ولما طلبت منه أن تدخل لترى الجرحى، منعها قائلًا:

– أؤكد لكِ أنهم ليسوا هنا، ولا تقلقي عليهم بإذن الله هم بخير.

فما كان من عمتي إلا أنْ بكت، وقالت له:

– أرجوك أخبرني الحقيقة، لعل النار التي في قلبي تخمد.

عندها قال لها الحقيقة خاضعًا لقلقها ولهفتها على إخوتها فاعترف بوجودهما قائلًا:

– يوجد اثنين هنا، أحدهما أسمر البشرة متوسط العمر، وثانيهما حنطي البشرة.

فصرخت عمتي:

– فؤاد ومحمد طمئنّي عنهما طمأنَ اللهُ قلبك!

– إنهما بخير والحمد لله.

لكنّها لم تصدِّقْه! كان في داخلها إحساسٌ غريبٌ لم يسبق أن أحسّتْ به، فسألته لتتأكد:

– هل أنتَ متأكد؟

لكنه لم يُجِبْ، بل سألها:

– مَن هذه التي معكِ؟

– إنها خطيبة أخي محمد.

فأشفق الرجلُ على المرأتَيْن المنكسِرتَيْن، فقال:

– أحدهما في غرفة العمليات، أما الثاني فقد كُتِبَتْ له الشهادة.

وهنا كان الوجع، وجع عمتي ووجع خطيبة عمي محمد؛ فلا عمّتي عرفت على أي واحدٍ منهما تذرف الدموع، ولا خطيبة عمي محمد عرفت ما إذا أصبحت خطيبة الشهيد، أم إنّ خطيبها هو الذي في غرفة العمليات!

– هذا عين وذاك الأخرى، على مَن أبكي؟! (قالت عمتي والدموع قد ملأت وجهها).

ثم استنجدت بالناس هناك، سألت الأطباء أن يسمحوا لها برؤية الشهيد، تبكي وتصرخ وتقول:

– أرجوكم دعوني أرى الشهيد، أنا وحيدة هنا وقلبي تشتعل فيه النيران.

– أرجوكِ يا أختي، اصبِرَا قليلًا ريثما تنتهي العملية. (قال الممرِّض).

كانت خطيبة عمي محمد مصدومةً، فهي العروس التي كانت تتجهّزُ لحفل زفافها بعد أسبوعين، وبدل أن تكون مع خطيبها ينظّمان لحفلتهما ويحضران ما يلزمهما للحفلة والبيت، ها هي تنتظر لتعرف إن كان هو الشهيد أو الجريح ذو الحالة الخَطِرة!

.

.

نصف ساعةٍ تفصل عمتي وخطيبة عمي عن موعد معرفة مَن هو الشهيد ومَن كُتِبَ له لحظات جديدة يعيشها.

ووسط لحظات الانتظار الموجِعة تلك، كانت جدَّتاي وعمتي الصغيرة (منى) عالقين في منزل عمي (عماد) في البداوي، بعد خروجهم للبحث عن جرحى العائلة. أما مخيم نهر البارد، فقد كان مفصولًا عن العالم الخارجي، كان مُحاصرًا وحُجِبَتْ عنه الاتصالات. أنا وأمي وباقي أفراد العائلة وجمعٌ من الجيران والمعزين، كنا في بيت العائلة في مخيم نهر البارد، كان الناس في حالة صدمة، الكل صامتٌ لا يتفوه بحرف، لكنّ نظرات القلق والخوف أفشَتْ ما يخبّئُه الناس، انقطع التيار الكهربائي وإرسال الهواتف لمدة تصل إلى ثلاث ساعات، ثم فجأةً جاء اتصال لعمتي (منتهى) عند الساعة الثامنة والربع، كانت المتصلة صديقة لها، وكانت تبكي بألمٍ وتقول:

– يا لبشاعة هذا الخبر يا منتهى! رحم الله فؤاد وأعاد لكم إخوته بصحة وسلامة.

خارت قوى عمتي (منتهى)، شخصَتْ عيناها، رأت الناس حولها أشباحًا شفافةً، ثم وقعت أرضًا لكنها لم تفقد الوعي، بل رأت الناس حولها مذعورين، يسألونها سؤالًا واحدًا، بنبرةٍ موحَّدة:

– ما الذي حدث يا منتهى؟! تكلّمي!

فصرخَتْ:

– ما لكم تجلسون هكذا؟! ابكوا فؤاد... فؤاد راح... فؤاد مات!

قنبلة وجع كانت موقوتةً طوال فترة البحث، ثم ها هي تنفجر باستشهاد أبي!

بعد أن سمعتُ كلام عمتي (منتهى)، نظرتُ إلى أمي فوجدتُها فاقدةً للوعي، وعمّاتي يصرخنَ.

وقعت عيناي على عمتي (منال)، كانت منهارةً، تنظر إلى ركوة القهوة التي تتوسط الصينية ومعها فنجان وحيد، وتقول:

– الله معك يا أخي، لم تشرب قهوتَك التي أعددتُها لك، كل شيءٍ كان ينتظر قدومك!

كان المشهد مليئًا بالانكسار والضعف والخوف، الصراخ يتعالى، أيادي المواسين ترِبّتُ على كتف عمّتي

هذه، أو تقبض على يد تلك. ثم وصل الشاب الذي حدّثَ أمي من

هاتف أبي ليوصل الأمانة، لكن ما فائدة الهاتف كأمانة إذا كان والدي قد أسلمَ أمانتَه (روحَه) إلى بارئها!

وعلى الرغم من الازدحام حولي، كان ثمة فراغٌ لا يقدر أحدٌ على ملئهِ. كنتُ صغيرةً، لكني كنتُ أدرك كل ما كان يحدث، ومنذ تلك اللحظة وأنا أعاني ألمًا في صدري ووجعًا في قلبي لم يُشْفَ بمرور الوقت... ولن يُشفى!

أخذت قطعة قماش من درج أمي ووضعتُها على رأسي، هل تحجَّبْتُ؟ لستُ أدري، لكني فعلتُ فعلتي تلك لاعتقادٍ طفوليٍّ مني أنك ترضى وتعود.

.

.

بين دماء الجرحى، وفرضيات العثور على المفقودين، وآهات الوجع على الشهداء، قضت العائلة ليلتها تلك.

العُرْسُ الكبيرُ

لم نستطع الصعود إلى المنزل، نام مَن تبقّى من العائلة في المخيم في منزل جدي. ومع أنّ البكاء والصراخ توقَّفَا، إلا أنّ عماتي وأقاربي جميعًا كانوا يبكون بكاءً صامتًا، يتألمون بلا صوت، يتوجعون بهدوء!

لم تذق أعيننا النوم، تجمّعنا أنا وأخواتي في حِجْرِ أمي، أو في حضنها سأقول؛ فكلمة حِجْرٍ لا تروق لي... فهي – وإنْ دلّتْ على الحضن – إلا أنها فيها شيء من الحَجَر... هي علاقة جناس، الحروف ذاتها، وترتيب الحروف نفسه. ولكن بعيدًا عن اللغة، كان حضن أمي أوسع من الوطن، وأرقَّ منه!

أما أخي (خالد)، فكان وحيدًا في البداوي يواجه انكسارَه وصدمتَه وخيبتَه!

أنفقت الليل بطوله أفكر وأتساءل: كيف لأبي أن يقضي ليلةً كاملةً في براد المستشفى؟!

كان شيئًا مرعِبًا يا أبي! كنتُ أنظر في السماء وأتوسل إلى القمر أن ينام وإلى النجوم أن تختفي، بُحَّ صوتي وأنا أناديك بقلبي، بكيتُ... بكيتُ كما لم أفعل من قبل، لكنكَ... لم تأتِ!

جئتَنا في اليوم التالي شهيدًا، عريسًا طاهرًا يشعّ النور من نعشِكَ، وحولك جمعٌ من الناس، من المناضلين ورفاق الدرب، حوالي خمسة عشر ألف مُشيّعٍ يزفونكَ. خرجتَ من مخيم البداوي شهيدًا مُكَلَّلًا بالزهور والورود، حملك حرسُ الشرف في قوات الأمن الوطني الفلسطينية، مشوا بنعشكَ من أمام قاعة (جامع زمزم) حتى المدخل الشمالي لمخيم البداوي، حيّوكَ بالرصاص تقديرًا لحياتك الفدائية.

لم يمرَّ أحدٌ من حاجز مخيم نهر البارد إلا بعد أنْ يُبرِزَ بطاقته الزرقاء، لكنكَ دخلتَ ولم تبرز شيئًا، دخلتَ وأبرزَ الناسُ تاريخكَ المُشرِّفَ.

الآلاف من المشيعين، من مخيم نهر البارد، ومخيمات الشتات في لبنان، ومن الجوار اللبناني شاركوا في تشييعكَ يا بطلي!

كان العرس كبيرًا بحجم فقدي، مخيفًا بقدر غيابكَ، وأنا جالسةٌ في زاوية الشارع أسمع الهتاف والشعارات: (لا إله إلا الله الشهيد حبيب الله).

– وصل الشهيد! (صاح الناس).

فزغردت النساء، وهتف الرجال، وتهافت الشباب والرجال إلى نعشك. امتزجت الدموع بالزغاريد والتكبيرات: (الله أكبر... الله أكبر).

في حضرة شهادتك، انحنت الهامات الوطنية إجلالًا لتضحياتك، وإكبارًا لإنجازاتك، صمتت الألسن، ودمعت العيون... أدميتَ قلوبَنا يا فؤادي!

وصلت زفتُك إلى المنزل، هددونا أنه إذا سمعوا لنا عويلًا وصراخًا سيأخذونك منا إلى مثواك الأخير! ولمّا دخلتَ شرعَ الناسُ يجتمعون حولك، من أين نبعت تلك النسوة جميعهن؟!

اقتربتُ وراوغتُ حتى وصلتُ إليك، خشيتُ أن أطيل النظر في وجهك، فأنا لم أعهدكَ هادئًا هكذا، غافية الدنيا في عينيك، يملأ فمَك قطنٌ أبيض، يدك باردة،

جبينك قطعة ثلج... لم أعهدك هكذا، أنت الجبل الشامخ، أنتَ الذي قد طالما كان حضنك منبع الدفء، ويدك مصدر الأمان، لا تقسو علينا مهما قست عليك الحياةُ، أنت جيشي الذي أخوض به أعظم المعارك وأخطرها وأفوز! فهل يُعقل أن تهز جبلي وجيشي رصاصةُ غدر؟!!

– قم يا أبي صغيرتُك تبكي! (قلتُ لكَ بصوتٍ باكٍ مِلْؤهُ القهر والحزن والوجع).

صدمتي كانت أكبر من الكلمات، وخيبتي أشد مرارةً من العلقم، لم أستطع أن ألفظ الألم من داخلي، فشعرتُ أني أختنق بالكلمات. كل ما بداخلي كان يرتجف من شدة وجعي، الدم يغلي في عروقي، وروحي تنازعني كي تخرج فتعانق روحك، وقلبي اضطربت دقاته فشعرتُ أنه يريد الخروج من صدري... لم أكن أعلم شيئًا عن قسوة الحياة حتى رأيتُك أمام عيني ميتًا!

كان موتك موجِعًا، وفقدي توسّع منذ تلك اللحظة إلى اليوم حتى فاق الكون اتساعًا! يمرّ شريط ذكريات طفولتي معك، أتأمل وجهكَ الباسم.

عد يا أبي... ما زلتُ صغيرةً أحتاج السند والقوة والاحتواء... قم يا أبي فصغيرتكَ الآن تبكي!

عد يا أبي... فأمي منهارَةٌ تبكي بلا صوت، دموعها تحرقني، غُصَّتُها تؤلم قلبي، تتأمل فؤادها الراحل، ثم تنظر إلينا، نحن الأيتام الأربعة؛ مَن سيعيلنا بعدك؟

جدتي تحتضنك بكل ما فيها من حنان الأمومة، تبكي بحسرةٍ، فلا شيء يعزّي أُمًّا فقدت ولدَها! تنظر إليك، تكذِّبُ عينَيْها، فأمومتُها ترفض فكرة موتك!

جدي يتأملك أيضًا، يراك ساكنًا، باردًا، يلفك الكفن الأبيض، ومع ذلك يقول إنك اختنقتَ من قنابل الغاز فقط! هو مصدومٌ، تبدو الخيبةُ في عينيه، فولده فؤاد اليوم شهيد... وليس مختنقًا!

مروى، أكبر فتياتك، أعصابها تالفة، وجع روحها ينعكس في ملامحها، ترتمي في أحضانك تودعك، أنتَ حبيبها

الأول! تستمد الدفء منك، على الرغم من برودة جسدك؛ تعاهدكَ أن تكون كما تحب لها، وأن تحقق الأحلام التي قد طالما تمنيتَها لها. ها هي تُصاب بنوبـــَةٍ

عصبيّةٍ، تتمسك بك تأبى أن تفلتك، لأنها الآن أدركت أنها تراك للمرة الأخيرة!

جنى تحضنكَ أيضًا، تبكي بحسرة الأطفال الصغار، تقبّلُ يدكَ تارةً وجبينكَ تارةً أخرى، تحتضنك بكامل قوتها الطفولية، تناجيك فتقول لك:

– بابا حبيبي ارجع!

كم كان موجعًا مشهدُ أخواتي! طفلةٌ في الحادية عشرة تحضن أباها الشهيد بدل دميتها الصغيرة.

بحثتُ وسط الجمع عن وحيدِكَ (خالد)، آه على خالد! ألمنا جميعًا لا يساوي ألمَه. لم يزل صغيرًا على تحمل مسؤولية أمه وأخواته الثلاث، كانت نظراته حادةً ومنكسِرة، فبطلُه يُزَفُّ شهيدًا وأخواته منكسراتٌ باكيات، كان لسانُ حالِه يقول: قاسيةٌ هي الحياة وظالمة!

هموم الدنيا تتكدس في قلب (خالد)، حتى محاولاته أن يبدو قويًّا تتعبه! فمَن يرمِّمُ قلوبنا المكسورة؟!

جاء وقت رحيلِكَ عنّا في هذه الدنيا، فلن أقول إنك فارقتَنا إلى الأبد، لأنّ موعدنا الجنة بإذن الله.

جاء الناس، هاماتهم مرفوعة لكنّ قلوبهم مُنهَكة، رفعوك بزنودهم المفتولة، رفعوك على أكتافهم، وبخُطىً ثقيلة مشوا بكَ من الصالة حتى باب البيت الخارجي، فرُحْتُ أتأملكَ مرفوعًا على الأكتاف بين آلاف البشر الذين يهتفون: (لا إله إلا الله، الشهيد حبيب الله). أضع وجهي على ركبتَيَّ، تحتضن يداي الصغيرتان جسدي كاملًا، وتذرف عيناي دموع اليُتْمِ والفقدِ!

كان نعشُكَ مُزهِرًا، منيرًا كشمس الظهر، مهيبًا كشمس الغروب، أتفكر بك من بعيد؛ بوجهكَ الذي كان يحتوي الفصول جميعَها، وأقول في نفسي إنكَ عائدٌ... عائدٌ يا أبي... وكان هاتفٌ بين الحشود يهتف بما أحدِّثُ به نفسي، يقول: (عائدٌ إلى لغتي، عائدٌ إلى حكايتي...). نعم يا أبي، ستعود إلى عينَيَّ اللتين تزهران برؤيتِكَ.

عاد الجميع من الجنازة، نصبوا خيمة العزاء التي غطّت نصف الشارع الذي شهد أفراحنا القديمة جميعَها.

مَرَّ اليوم كأنه ألف عام! بدأت سنيُّ عمرنا العِجاف، ومن عادة الوقتِ أن يُصاب بشلَلٍ في لحظات الفقد والألم والبكاء ووجع القلب. وانقسم الناس قسمَيْن؛ بين مُقَدِّمٍ واجبَ العزاء بأبي الشهيد، وبين مُقَدِّمٍ واجب التهنئة بسلامة عمي (محمد) في مستشفى الخير. ولأنه كان صحافيًّا في قناة (العربية)، توافدت القنوات التلفزيونية لإجراء مقابلات معه لمعرفة حقيقة ما جرى، فهو وعائلته كان لهم النصيب الكبر مما حدث كله.

وكان عمي (أمين) قد أُصيبَ بكلتا قدمَيْه؛ أربع رصاصات في قدمه اليمنى، واثنتان في اليُسرى، كان منظر قدمَيْه مريعًا، كانتَا كأنهما معلقتان بجسده بخيطٍ رفيع يكاد لا يُرى! وما زاد من خطورة حالتِه، إعاقةُ خروج مُسعِفيه من المخيم. خطورة الإصابة، والنزيف الشديد الذي تعرّضَ له، كانَا عاملَيْن بارزَيْن جعلَاهُ يخضع لعمليةٍ جراحيّةٍ هي أشبه ما يكون بالمغامرة.

عمي (أمين)، الشاب الطَّمُوح، لاعب كرة القدمِ الماهر، أبرز لاعبِي نادي فلسطين، لا يقوى الآن على تحريك إصبعه حتى! لا يعرف مَن أُصِيبَ من العائلةِ غيره، ولا يعرف أنّ أخاه، فؤادَ روحِه، أصبح شهيدًا... بقي هكذا خمسة أيامٍ حتى أتت عمَّتُه حاملةً باقة وردٍ داخلها بطاقة تعزية!

وهنا كانت نكسة عمّي، لم يخسر هوايتَه التي يحب فقط، بل خسر أخاه الذي كان درعًا له عندما صارعَا معًا من أجل الحياة!

رجع إلى المنزل بعد سبعة عشر يومًا، وبين عذوبة البدايات ووجع النهايات شعر أنه فقد شيئًا منه، شيئًا كبيرًا وعظيمًا – هو أخوه – وهوايةً قد طالما لجأ إليها في أوقات فراغه وتعبِه! أمضى سنتَيْن متنقِّلًا على كرسي متحرك، قبل أن يستطيع الوقوف على قدمَيه الممتلئتَيْن بأسياخ البلاتين التي حرمَتْهُ العودةَ إلى نادي كرة القدم طيلةَ حياته، فمنذ عام ٢٠١٢ حتى يومنا هذا لم تلمس قدمَاه الكرة!

لكنّه شُفِيَ آخر المطاف، كان شفاؤه مواساةً لجدتي التي أضناها فراقُ أبي، وأثقلَ قلبَها ما أصاب العائلةَ من إصاباتٍ وتشريدٍ...

ما بعد الفاجعة

مَرَّ اليومُ الأول، أُغلِقَ بابُ المنزل الخارجيُّ، وفي منتصف الليل، كنا في بيت جدي، فاشتدَّت وطأة الوجع في نفوسِنا، وأثقلَ الهَمُّ قلوبَنا جميعًا.

هجرَ النومُ عينَيَّ تلك الليلة، لم تفارقني رؤيتُك، لم أكُفَّ عن التفكيرِ بك؛ كيف تقضي ليلتك الأولى وحدك من دوننا؟! **كيف لقبرٍ صغيرٍ أن يحتويك وأنت بمساحة وطنٍ شاسع؟!**

على الرغم من قسوة ظروف عملك، لم تغفُ عيناك يومًا خارج المنزل، لم تكن تنام قبل أن تطمئنَّ علينا وتتأكد أنَّ كل واحدٍ منا قد توجَّهَ إلى أحلامه السعيدة.

كم تمنيتُ أن يكون ما حدث كله كابوسًا يزول عندما أفتح عينَيَّ فجأةً، ولذلك كنتُ أغمض عينَيَّ ثم أفتحهما بسرعة... ولكني في كل مرةٍ أُخفِق! ما حصل حقيقةٌ يا أبي... حقيقةٌ يجب أن أتقبّلها بقسوتها وألمها وبكل ما فيها من وجع، ولكني لم أزل عاجزةً عن ذلك.

مَن تسبَّبَ بهذا الوجع كُلِّه؟!

أرغب أن أنام هذه الليلة، لأستيقظ صباحًا على صوت أمي وهي تنادينا: (استيقظوا الفطور جاهز)، فأنزل عن سريري بسرعةٍ، بنشاط الأطفال، فأقبّل يدها ويدَ أبي، حتى إني مستعدةٌ ألا أتذمر من الذهاب إلى المدرسة كل صباح، لنجلس جميعًا على مائدة الفطور، ثم تفوح رائحة قهوة أبي، وأذهب لأتجهز للذهاب معه إلى المدرسة...

عُد يا أبي!

أعدك ألا أدعك تنتظر ساعاتٍ كي أنتهي من أشغالٍ لم تكن سوى ذرائع لكيلا أذهب إلى المدرسة.

عُد يا أبي!

أعدك أن أتخلى عن فكرة الذهاب في الرحلة السنوية، وأن أنهي واجباتي فور قدومي إلى البيت، ثم نجلس إلى طاولة الغداء، ولا أتذمر لأنّ أحدًا من إخوتي مازحني.

عُد يا أبي!

لم أحصل على ما يكفيني من حنانكَ للعطف على الجميع، ومن قوتكَ لمواجهة مصاعب الحياة ومصائبها.

بقيتُ هكذا حتى ساعات الفجر الأولى، ثم هطل المطرُ ليروي ثراكَ الذي لم يزل نديًّا أصلًا، لكنّ السماء بشموخها تريد أن تتمسك بك مثلي. ثم ذهبنا إلى قبركَ في ساعة الشروق الأولى، بخطواتٍ ثقيلة، إذ إننا معتادون ارتياد المقابر صباح العيد، نتلو الفاتحة على أرواح أموات العائلة الذين لم أكن أعرفهم، لكن ولأول مرةٍ أقرأ الفاتحة لشخصٍ أعرفه، لأبي! أزور شيئًا مني في المقبرة،

صحيحٌ أنّ جسدك تحت التراب، بيد أن ذكراكَ حَيَّةٌ تُرزَق في قلبي وفِكري.

لحظات زيارة قبركَ أقسى لحظات يمكن أن أعيشها، أبكي دموعًا سخيّةً تبعثر أحلامي، أحلم بك بشوق وحنين لا ينتهيان، وكلما رأيتُ قبركَ أتذكر القطن الذي كان يملأ فمَك، فأعود بالذاكرة إلى يوم تشييعك عندما سألتُ رجلًا بين الحاضرين، ببراءة الطفولة:

– هل أزلتم القطن من فمِهِ؟ لماذا القبرُ صغير؟!

ليجيب الرجل بدهشةٍ وذهول:

– أزلناها يا ابنتي، ولا تقلقي، أبوكِ سيكون بخيرٍ هنا.

ويبدو أنه شعر أنّ إجابته لم تطفئ النار التي في داخلي، فأضاف قائلًا:

– أبوكِ شهيد.

وتلَا قول الله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ). – آل عمران: ١٦٩ –.

ولما عدتُ من دنيا التفكير، وجدتُني أمام قبرك، فبكيتُ! بكيتُ لأنكَ مِتَّ قبل أن تحقِّقَ حلمك بالعودة إلى وطننا فلسطين، فها أنتَ تُدفن في تراب مخيم الشتات ولا يحتضن جسدَك ترابُ الوطن!

كيف لرصاصة غدر أن تسرق حلمك النضالي وحياتك التي أنفقتَها بالدفاع عن فلسطين... فلسطين التي كانت حَيَّةً في قلبك؟!

تذكرتُ الحوار الذي دار قبل وفاتك بأيامٍ قليلة، حين كنا جالسين جميعًا، وقال أحدهم إنّه لم يبقَ في مقبرة خالد بن الوليد سوى قبرين، فضحكتَ حينذاك، رَنَّتْ ضحكتُك في أذني، وقلتَ:

– اللهُ أعلم مَن سعيدًا الحظ اللذان سيحظيان بالقبرين فيستريحان من الدفن بين القبور أو عند باب المقبرة.

واليوم ها أنتَ تُدفن في أحد القبرَيْن، هنيئًا للقبر بك، فهو مَن فاز باحتوائه شهيدًا داخلَه، ولكن ليس القبرُ الوحيدَ الذي يحتضنك، بل أنا أيضًا، أحتضنك بروحي وقلبي وعقلي وفِكري...

وكان القبرُ الآخر من نصيب الشهيد الطفل (أحمد القاسم)، لقد أصبحتُما رمزًا للصمود والتضحية لا في المخيم فحسب، بل بالنسبة للشعب الفلسطيني كُلِّه.

مَرَّ اليوم الثاني فالثالث، دخلت أمي فترة عزلتِها، بدأ اكتئابُها يظهر في ملامح وجهها ونظرات عينيها اللتين حُرِمَتَا النومَ تبكيانك في الليالي الموحِشة، وتحتار أمي؛ على مَن تحزن؟ على خسارتها شريك عمرها؟ أم على أطفالها الأربعة الذين يُتِّمُوا وحُرِمُوا الأمان؟

مَرَّ اليوم الأربعين، لم ينتهِ العزاء بكَ! ألهذه الدرجة كنتَ عظيمًا واستثنائيًّا بالنسبة للشرفاء والوطنيين أمثالك؟! كنتَ محبوبًا للحد الذي دفع المُعزِّينَ من المخيمات جميعها إلى القدوم لتقديم واجب العزاء بك، حتى بعد انقضاء أربعينِك!

معلماتي، أصدقائي، أناس أعرفهم وآخرون كُثُر لا أعرفهم، وفود غفيرةٌ كثيرةٌ تليق بك، تليق بشهادتك وأثرك الطيب الذي تركتَه بعد وفاتِك، فكنتَ دفين التراب جسدًا، لكنّ روحَكَ معنا هنا، ولم نزل نشم

ذكراك الطيّبة، لم يشقَ أحدٌ بحضورك، لكن الجميع تألم لغيابك.

شعلة الانتفاضة بدأت تنطفئ، تحولت من انتفاضة ثائرين غاضبين إلى اعتصامٍ سلميّ! يجلس الناس على الشارع العام، مكبرات الصوت والسيارات التي تجوب شوارع المخيم تصدح بأغنية (رجع البارد) تحيةً لأرواح الشهداء:

"رجع البارد ابكي يا دموع العين

والدموع سالت على الخدين

رجع البارد يا يما زغردي

أحمد يا شبل الثورة بالبارد أشعل ثورة

والشهيد فؤاد لوباني... والشهيد فؤاد لوباني

يا حبيب الملايين

لا تقول سعسع صفورية

لا تقول بروي ودامون

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

لا تقول جاحولا وعمقا

البارد يا ضي العيون

نهرك أرضك بحرك جوك

يا بارد ما في مثلك

طيور الوفا غَنّتْلَك

يا حبيب الملايين

اكتب واحكي يا زمان

عن نكبة شعب فلسطين

اروي وقول حكايات عن مأساة اللاجئين

الزمن فينا لو طال

رح يبقى الأمل موجود

والبسمة على الأطفال

تملا هالدنيا ورود

لا تقول بارد بداوي عين الحلوة وراشدية

لا صبرا ولا شاتيلا

شعب واحد ما بلين

فلسطين رجعوا أولادك أقسموا بتحرير ترابك

ما مننسى والله شهداءك

ورجالك أحرار وميامين".

.

على الرغم من الفوضى والدمار والدم، رَدَّ الشباب الخمسةُ الحالمون المسالمون: كاتب الأغنية (سعيد العلوش)، المغني (وائل شعبان)، المُلحِّن (وجدي ديوان)، والكورال المتمثل بـ (سليمان وهبة) و (نمر الدلو)، ردّوا على مرارة التشريد، وقسوة الفقد، وعلى تلك القباحة، بالجمال واللباقة والفن... فكانت الكلمات صادقةُ الإحساس، والآلات الموسيقية التي تُعزَف عليها ألحان الغضب والصمود والسلام، سلاحَهم في وجه كل ما قاسى المخيم!

هذه هي صورة المخيم، مسالِم ينبض بالحياة، على الرغم من المآسي والنكبات المتتالية... هؤلاء نحن، وكما قال محمود درويش: "ونحن نحبُّ الحياةَ إذا ما استطعنا إليها سبيلا".

هذه حكايتُنا

بعد استشهادك لم يملك المخيم غير خيارين: إما سكب المزيد من الغضب والتصعيد، أو اللجوء إلى الأساليب

السلمية والطرق الدبلوماسية لوضع حَدٍّ لشلال الدم الذي لا ينتهي في المخيم.

فأُبرِمَ اتفاقٌ، بعد زيارة وفود غفيرة من المشايخ وكبار المسؤولين في لبنان، على إزالة الخيمة التي تغلق الشارع العام، فانقسم الناس إلى مؤيد ومعارض ومتحفّظ.

وبعد حوالي شهر ونصف، أُزيلتِ الخيمةُ، ثم أُخلي المنزل الذي حصل منه إطلاق النار بعدها بأشهر. خَفَّتْ وتيرة التشديد الأمني على المخيم، فأعيد افتتاح أرض صامد لتصبح مقبرةً، واليوم تضم هذه الأرض المئات من قبور اللاجئين. أُقيم إفطار جماعي في رمضان بحضور فصائل المخيم ومشايخه والسفير الفلسطيني والمدير العام للأُنروا. وكان الاتفاق أن يتوقف العمل بحالة الطوارئ الأمنيـّة في المخيم، ويُطلق سراح الموقوفين، وتُلغى التصاريح الخاصة باللاجئين.

أنا عن نفسي، أرغب أن أحمل التصريح في كل مكان، وأن أبرزه حتى عند الخروج من المنزل، بل عند التنقل بين الغرف في المنزل الواحد! فالتصاريح كان ثمنُها باهظًا

جدًّا، كان ثمنها أحلامنا وحقنا بالعيش داخل منزلٍ يغنينا عن السلاح. كان ثمنُها دمَ الفؤاد، سندنا وعمود بيتنا، فاليوم ماذا ينفعني درعٌ نُقِشَ عليه اسم أبي بوصفه "شهيد فلسطين"؟!

اليوم تصالح الجميع! وماذا أستفيد أنا من الصلح والمجاملات بعد أن فقدتُ صوته وابتسامته ووجوده الذي قد طالما جعلني أشعر أني أقوى إنسان في الدنيا؟!

يقولون إن نار البغض والمكائد استُئصِلت من النفوس، لكن مَن يخلّصني أنا من نار يُتمي وفقدي؟! مَن يعالج وجع أرواحنا ويعيد لفؤادنا الحياة؟!

نهاية سعادتنا وبداية الأسى في حياتنا كان برصاصتَي غدرٍ، إحداهما في بطن أبي، والثانية اتخذت قلبَه وطنًا فأسكَتَتْ ذلك القلب الحنون عن الخفقان!

الأمر أشبه بعملية اغتيال لسعادتنا وأمان عائلتنا!

لم تكن الحياة عادلةً معنا يا أبي، لكنّ الآخرة ستكون أرأف وأرق على قلوبنا، سينصفُنا عدلُ اللهِ تعالى.

أما قاتلُك، فجزاؤه في قول الله تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيْهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا). – النساء: ٩٣ –.

.

.

هذا وعد الرحمن لنا، الحمد لله على نعمة الصبر، تقبّلَه اللهُ من الشهداء ومع الصدّيقين والصالحين.

هذه حكايتُنا، بين صيف الطفولة وشتاء الموت، أبي شهيد وأعمامي جرحى...

رسائل إلى أبي

"أبي من أسرة المحراث

لا من سادة النُّجُبِ

يعلِّمُني شموخ النفس

قبل قراءة الكتبِ"

محمود درويش.

اكتُبيهِ!

في الروح رسائلُ تعود إليَّ البهجةُ حين أكتبها،

رسائل تُنْعِشُ قلبي

إذ تخرج من لُبِّهِ فتسير في الأوردة

قبل أن تصل إلى أصابعي فتخرج مع حبر أقلامي.

هي رسائل أكتب حروفها

بأقلام الوجع وأحلام اللقاء،

وحين يسيل الحبر على أوراقي المتكدسة

على طاولتي المغبرّة،

تخرج التنهيدات من داخلي فتثير دموعي،

وتقول لي:

اكتُبيهِ... اكتُبيهِ ودعيه يحيا!

فأكتبك بكل جوارحي واشتياقي،

بكل ما يختلج في داخلي ويفتك بقلبي...

في شغف الماضي

وحنين الحاضر

وأحلام المستقبل...

أحتاج إليكَ في مراحل عمري كلها،

فقلبي يعزُّ عليه أن يسلك درب السعادةِ

أو متاهات الألم وحيدًا... من دونك إلى جانبي!

اعتدتُ أن أكتبكَ كي أشكو ألم اليُتم والفقد

ومرارة انطفاء اللهفة؛

أكتب إليك بمشاعري وحالاتي المزاجية جميعها،

بالحب والوجع والعناد والفراق...

لأطلعكَ على كل ما يحدث في حياتي من تقلّباتٍ

موجِعةٍ ومفرِحة.

هكذا هي رسائلي:

تهز كياني وتشتِّتُني،

تنثر أحلامي ثم تجمع شتاتي وأحلامي من جديد،

هذا ما أعيش في غيابكَ

يا فؤادي!

صراعُ الفصولِ

خساراتي كثيرة،

خياراتي ليست صائبةً في كثيرٍ من الأحيان.

شاردةٌ الآن بما مررتُ به،

جالسةٌ وحدي أحصي عدد خيباتي،

تسعة عشر عامًا من تقلّبِ طقوس عمري،

عشتُ أحد عشر عامًا في صيف الطفولة

بأحضانٍ آمنةٍ ومُحِبّةٍ وحنون.

ثم في حزيران عصفت ريح الفراق،

وتلويتُ من خوفي من رعد الموت

وبرق الحرمان،

فتحوّل صيفُ طفولتي إلى شتاءٍ قاسٍ قارسٍ!

ثم دخلتُ مراهقةً عاصفةً،

تُهتُ فيها بين الممنوع والمسموح،

الظلمة وشبه النور.

لم ألحق من طيش العمر سوى إحدى عشر شهرًا

في ربيع المراهقة،

أزهر ما ذبل من الأمل في داخلي،

شعرتُ أنه ثمّةَ ما يستحق الجنون وكسر القواعد

والقوانين والدساتير...

هناك مَن تقبّلَني بلعنتي الأولى،

فقال لي: لا ذنب لكِ بما حدث كله، لقد كُتِبَ

عليك قبل ولادتكِ.

فأعاد النور لدربي والفرحة لقلبي،

ضَمَّدَ البعض من جراحي،

أعاد إليّ إيماني بنفسي.

كانت سعادتي باديةً على ملامح وجهي كل صباح ومساء،

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

عيناي تشعان نورًا،

قلبي يخفق بسرعةٍ قياسية،

أحببتُ هذا الربيع جدًّا،

لكن يبدو أنّ الحياة لم يرق لها أن أكون سعيدةً!

إنها لعنة الحادي عشر!

عندما حان العام الحادي عشر

في صيف طفولتي،

عشتُ الفقدَ؛

وعندما حان الشهر الحادي عشر

في ربيع مراهقتي،

عشتُ الفقدَ.

وما بين الفقدَيْن أحد عشر سؤالًا

لا أملك الإجابة عنها.

أتى الخريف إلى عامي التاسع عشر،

ذبلت اللهفة إلى الحياة داخلي،

تساقطت أحلامي.

حاولتُ الاعتياد لكني فشلتُ!

وها أنا الآن أعيش صراع الفصول في حياتي،

لا أستطيع استعادة صيف الطفولة،

أحِنُّ إلى ربيع المراهقة،

أكره الشتاء،

لا أتقبّل حزنَ الخريف وقسوته.

بين حنان الصيف ونسيان الشتاء،

بين فرح الربيع وحزن الخريف،

بين الحكايات والمحاولات،

بين جمال البدايات وقبح النهايات...

فقدتُ أغلى أشيائي!

فقدتُ وجوهًا وابتساماتٍ وأصواتًا يحبها قلبي؛

فقدتُ الأمل واللهفة والشغف

تجاه كل ما تبقّى بعدهما...

والآن،

أعلن هزيمتي أمام أشيائي التي

أصبحت أشلائي!

أستودع اللهَ نصفَيْ قلبي؛

نصفًا تحت الأرضِ حَيًّا،

ونصفًا فوقها ميتًا!

أكره كل لعنات الحادي عشر،

أحب صيفي وأشتاق إلى ربيعي وأكره حياتي من دونهما!

لماذا أبي؟!

عندما نفقد عزيزًا،

ندخل في حالة صدمة.

تتردد في أذهاننا أسئلةٌ كثيرةٌ:

كيف حدث ذلك؟

لماذا هو؟

وقد يستغرق طرد هذه الأسئلة من فكرنا

وقتًا طويلًا،

فنثوب بعدها إلى رُشدِنا ونستوعب الحادثةَ

نوعًا ما.

أما أنا،

فبعد تسعة أعوام على فاجعة فقدانك،

اكتشفتُ أني لم أصْحُ بعد من صدمةِ ألم فراقكَ!

لم يفارق ذهني، ولا لحظة، عبقُ طيفِكَ

فيزورني هنا وهناك،

في ليلي ونهاري،

في قلبي وعقلي وكل فِكري!

في تجمعات الأصدقاء،

وسط الضحكات والمناقشات،

والأفراح والضحكات...

أتذكرك كلما رأيتُ أبًا مع ابنته،

يحتضنها أو حتى يعاركها،

فأشعر بغصةٍ في قلبي إذا ما تحدّث أحدٌ

عن نشاطاته مع أبيه... وعن ابتساماتهما.

كلما تعرفتُ إلى إنسان،

تشتعل النار في قلبي حين نبدأ بتبادل الأسئلة بخصوص

الأب وعمله، فأجيب بانكسار:

أبي شهيد!

وأظن أني أتحاشى التعرّف على كثير من الناس

كي أتجنب هذا السؤال. لذلك،

عدد أصدقائي محدودٌ جدًّا.

عندما أعود إلى المنزل، كنتُ أختلي بنفسي،

أهرب كلي إليك؛

بقلبي وعقلي ومشاعري كلها،

أحِنّ إلى الماضي الذي لن يعود،

أبكي بحُرقة حين يتحدث الجميع عن آبائهم،

وأنا لا أملك سوى القليل من الذكريات معك!

أتشعر بوجعي يا أبي؟

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

دمع عينَيَّ يحرقني، نار هجرك تكويني،

بركان من الألم يثور داخلي كل ليلة،

أفكاري تمزقني وتشتتني،

لا أستطيع أن أتخيلك بحضن التراب،

عقلي وقلبي وكل ما فيَّ لا يستطيع تقبّل هذا.

أنا أحقُّ من التراب بدفئك وحنانك واحتضانك،

لو أستطيع إخراج قلبي

كي أريك ندباته وجراحه الدامية!

أبكيكَ في أوقاتي وأيامي كلها،

كلما تذكرتُ ذلك النهار الذي غابت فيه

شمس فرحي.

ما زال ألم ذلك اليوم يرافقني، والسؤال يتردد بقوة:

لماذا أبي؟!

ألوانُ الكونِ باهتةٌ

أين أنتَ يا أبي؟

تهيمن عليَّ مشاعرُ قاسيةٌ

وشَرِسةٌ تفتك بي وتجعل أعماقي مُظلِمةً،

فلا ينجو من هذا الظلام شيءٌ منّي!

تعبٌ نفسيٌّ وجسديٌّ،

اصفَرَّ وجهي كزهر ميّال الشمس،

لكنه لا يميل إلى الشمس

بل إلى الهموم والأشجان!

وأنتَ تعلم يا أبي كم أحب اللون الأصفر،

لكنّه هذه المرة ليس كنور الشمس المملوء

حيويةً ونشاطًا،

وليس كلون بتلات الأزهار الصفراء

الذي يرمز إلى

مشاعر الصداقة والتعاطف في وقت الشدة.

اللون الأصفر الذي على وجهي

يرمز إلى الوحدة... الوحدة فقط!

وأنتَ تعلم يا أبي أني لا أحب اللون الأسود،

لكنه عانق عينَيَّ هذه المرة!

أصبحتُ أرى الحياة كلها ملونةً بلون واحد –

هو الأسود –!

غيابكِ كان كثقب أسود

ابتلعني وسيطر على حياتي كلها،

فسيطرت عليّ كآبةٌ مُرّة!

فلا شيء كما كان بوجودك!

ألوان الكون باهتة؛

فأين أنت يا أبي؟

لماذا تقسو علينا الحياة بدروسها؟

لِمَ لا تراعي الأعمار؟

لماذا أصبحتُ وحيدةً مع ألوان حزني وكآبتي؟

قد طالما رأيتُ الحياةَ مبتهجةً،

واليومَ يا أبي طفلتُك المدللة لم تعد كما كانت،

لقد أصبحتُ أنظر إلى الحياةِ

بعينَيْ مُسِنٍّ أكل الدهر من صحته وشرب!

نظراتي نظراتُ يُتمٍ وألم ووحدة...

ثم وحدة... ووحدة!

حتى اللون الأصفر الذي أحببتُه خذلني!

ظننتُه حضر لمواساتي،

لكنه من دون قصد غيّرَ ملامحي!

أيُعقل أن تموت الألوان أيضًا؟!

أيُعقل أن تنتقل بنا الحياةُ بين الأبيض والأسود

أو تمزجهما لينتج لونًا رماديًّا

تُصبغ به حياتُنا وأيامُنا؟!

لقد اعتدتُ أن أفقد الأشياء والأشخاص

الذين يحبهم قلبي،

فهل يا تُرى مات اللون الأصفر الذي

أحببتُه أكثر من كل الأشياء

كما متَّ أنتَ الذي أحببتُكَ

أكثر من كل الأشخاص؟!

أيُعقل أن يكون قلبي أرضًا غير خصبةٍ للحب؟

فكل ما أزرعه فيه يذبل ويموت!

وحيدُكَ يُزَفُّ عريسًا

جاء اليوم المنتظَر،

عادت الأفراح إلى نفوس أفراد العائلة،

إذ انتهى التحضير لحفل زفاف وحيدكَ (خالد).

الزفة في الخارج،

الناس يدقون على الطبول والدفوف،

والنساء تزغرد وتنشد أناشيد الزفاف التراثية،

موائد الطعام على طول الشارع...

آه يا حبيب قلوبنا وعُزوتنا وسندنا

كم أود لو أنك موجودٌ معنا تتقدم بخطواتك الشامخة

نحو وحيدك متناسيًا أتعاب الحياةِ

لتأخذه بحضنك الدافئ وتطبطب على كتفيه

متمنِّيًا له السعادة في القادم من أيامه...

مروى أوفَتْ بوعدِها لكَ

كبيرةُ قليكَ (مروة) أنهت حياكة قُبَّعتِها السوداء

التي سهرت ليالي طويلةً من أجلها،

واليوم – وبكل فخر –

تأخذ الصور الفوتوغرافية

مع إنجازها العظيم –

مع حلمك الكبير.

اليوم أوفَتْ بوعدها؛

ترتدي القبعة وثوب التخرج أمام الآلاف من الناس،

ستباغتها دمعتان؛

دمعة الفرح لنجاحها، ودمعة الألم لفقدك!

ولكن،

على الرغم من البعد والفقد،

نشعر بكَ فخورًا بنا،

فخورًا بقبعةٍ سوداء حاكَتْها ابنتُكَ

من خيوط الوقتِ ولوَّنَتْها بألوان الحبرِ...

سيسيِّجُها الناسُ بالورود، فيزهر فؤادكَ من جديد...

يا فؤادي!

ولادةُ الفؤادِ

وهبَنا اللهُ هديةً لطيفةً –

ملاكًا صغيرًا –

كي يبعث في فؤادنا البهجة من جديد،

ويعيد روح الأمل والسعادة إلى منزلنا،

ليجعلنا نسهر الليالي الكثيرة –

بكل محبةٍ وأُنْس –!

وُلِدَ حفيدُك (فؤاد) يا فؤادي!

إنه بيننا الآن

صورةٌ مصغَّرَةٌ عنكَ

حمل اسمك وملامح وجهكَ وجمال روحكَ...

الجميع يناديه ليستأنس بذكر اسمه:

فؤاد... فؤاد!

وإني، كلما سمعتهم ينادونه باسمكَ،

أبتسم... بل يبتسم قلبي

وتسعد روحي!

أحتضنه،

أشم رائحتكَ فيه،

وهو يتساءل عنك كثيرًا،

وكلما سألنا عن مكانكَ، قلنا له إنك في السماء

وإنك ترانا الآن.

وفي المساء عندما كنا مجتمعين،

حَدَّثَ النجومَ على أنها أنتَ!

لقد بعثه الله لنا لتعود ذكراك يا فؤادي...

لا أجد أحدًا

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

أتلفت حولي، يمينًا ويسارًا،

أنظر في الأرض والسماء ولكن من دون جدوى!

لا أرى ما أنظر إليه!

لا أرض ولا سماء ولا ليل

ولا شمس ولا قمر...!

وقفتُ على شرفة غرفتي المهترئة بفعل مرور الزمان،

صُدمتُ وذُهلتُ؛

لا أشجار ولا أغصان ولا عصافير...!

خرجتُ لأتجول في أزقة حارتنا التي

لم أحبَّها يومًا،

صحتُ بالحجر: أين البشر!

أين الجار والدار والأولاد المشاكسون؟!

أتجول وحدي،

السماء مائلةٌ للاصفرار،

حتى الأطفال وبائع الخضار لا صوت لهمَ!

صار المكانُ عبارةً عن ظلام...

غيومًا... غيومًا وضبابًا؛

أتُراها قامت قيامتي؟!

بكيتُ!

بكيتُ واشتد بكائي حتى كدتُ أنهار،

شعرتُ بالاختناق وكأنَّ أحدًا

لا أراه يحاول قتلي فيقبض على عنقي

بكل قوته!

ولمّا كاد الموت يفوز بي،

أيقظتني همسات أمي الحنون: استيقظي يا ابنتي!

نفضتُ غبار الكابوس عني،

وتأملتُ كُلَّ شيءٍ حولي،

وأول ما وقعت عيني عليه هو اللون الأزرق السماوي

الذي يعكس بهجته على النافذة.

بدأتُ أتفقد الأشياء،

فتحتُ النافذة لأتفقد الأشجار

فرأيتها في مكانها،

والطيور تملأ السماءَ

وتزقزق مستمتعةً بأشعة الشمس الدافئة،

الجارات مجتمعاتٌ للحديث في الأمور

الاجتماعية والاقتصادية والتقليدية التي

تخص الحارة!

وبائع الخضار يعيد غناء أغنيته المعتادة،

أطفال العائلة يصرخون كعادتهم...

شردتُ قليلًا،

وشعرتُ أني أحب جارتنا التي لا تتوقف عن الكلام،

أحب بائع الخضار

وأطفال العائلة،

أحب حارتنا!

اكتشفتُ النعيم الذي أنا فيه!

أحببتُ الحياةَ...

ثم تذكرتُ أني فقدتُكَ،

فأجهشتُ بالبكاء وعدتُ لأحتضن وحدتي

وأمي...

ازدحام

لقد مَرَّ أمام ناظرَيَّ الآن آلاف الأشخاص،

لكني لم أرَ منهم طويلًا ولا قصيرًا،

ولا نحيفًا ولا سمينًا،

ولا أشقر ولا حنطي ولا أسمر...

لم أرَ إلاكَ!

رأيتُكَ أمامي بألف نسخة،

شعرتُ بيدي المرتجِفة تلامس القلم بحنان

لتُشعِرَهُ بدفءِ الأملِ،

ثم تبدأ بتخطيط عينيك على جميع الوجوه.

إنّ الحبر قد تمرَّدَ لينحتَ جسدكَ أمامي،

وحريق الحنين توهّج ليُظهِرَ لي الآلاف من الناس

على أنهم أنتَ!

رفض قلبي وجودهم جميعًا ما عداك،

أهكذا يفعل الحنين؟

أم إن الألم الذي في قلبي

يجعلني لا أتقبل فكرة غيابكَ؟

أم إنك موجودٌ حقًّا؟

وقد يكون ثمة أربعون شبيهًا لك،

أو آلاف...

لكن لا أحد سواك

أحِنُّ له وأحبه كما لم أحنَّ ولم أحبَّ من قبل

إلا أنتَ!

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

تاريخُ وجعي تاريخُ تحقيقِ الأحلامِ

الذكرى السابعة لرحيلك قد أتت يا أبي!

في مثل هذا اليوم،

كان الصراخ والرصاص يتصارعان

أيُّهما يعلو على الاخر،

تسيل دماء،

ويموت أبرياء...!

وفي التاريخ ذاته،

أقف متفكِّرةً لتحديد مستقبلي،

أخطو اليوم الخطوة الأهم بعد جهدٍ وتعبٍ،

أجمع أحلامي المبعثرة وطموحاتي المتساقطة،

أتجه الآن لأصنع مجدي،

لأحقق أحلامكَ بي،

وكم تمنيتُ أن تتحقق الأحلام بوجودك.

يفصل بيني وبينك شارعان

وممر المقبرة والقليل من التراب...

والمدى كله!

لكن،

أشعر بك معي تمسك يدي؛

فأتذكر اليوم الأول لي في المدرسة حين

أمسكت يدي لتأخذني إلى المدرسةِ

بعد أن اختلقتُ الحجج لكيلا أذهب.

أعلم أنكَ قريبٌ مني، تراقبني من مكانك في الأعلى...

لكني أتمنى لو أنك هنا جسدًا وروحًا،

تقبض على يدي بشدة

ولا تفلتها أبدًا،

ليتك بجانب أمي خلف الشُّبَّاك

تلوّح لي بيمينِكَ وأنا ذاهبةٌ إلى المدرسة

كما يفعل آباء أصدقائي مع أولادِهِم!

تمنيتُكَ بجانبي بكل قواي،

وليس ثمة أقسى من تبقى الأمنيةُ أمنيةً!

لذلك، أستودع اللهَ أمنياتي لأنه وحده القادر على

تحقيقها لي.

رحمكَ اللهُ يا فؤادي!

علم نفس

لم أختر تخصصي عبثًا.

كنتُ محتارةً بين المحاماة وعلم النفس،

وددتُ أن أرتدي الثوب الأسود وأدخل

قاعةً كبيرةً لأقف إلى جانب إنسانٍ مظلوم

وأصدح بالحق والعدالة...

لأدافع عن المظلومين كلهم وأعيد الحقوق إلى أهلها...

لأملأ الزنازين بالقَتَلَة وعديمي الإنسانية والدين،

وأضع حدًّا لأنهار الدم الجارية؛

فأنا أؤمن أنّ كل دمٍ يُهدر واجبٌ عليّ

أنْ أقتَصَّ من هادِرِه!

لكن،

وبعد صراعٍ فكريٍّ طويل،

اخترتُ الثوب الأبيضَ لأنه رمزُ السلام...

اخترتُ علم النفس!

اخترتُه لأكون قريبةً

ومُحِبَّةً للناس بشكلٍ أكبر وأكثر رقَّةً،

لأساعد بكل ما أوتيتُ من محبةٍ وعطفٍ،

فأحتوي كل حزين

وأحتضن كل صغيرٍ فقد أباهُ!

لأطبطب على الأرواح البريئة

وأزيل الهموم التي تتعب الناسَ وتُثقِلُ كاهلهم،

لأحدثهم ما رغبتُ أن يحدثني به الآخرون ولم يفعلوا!

لأتخلص مما قذف

القلق والخوف في قلوبنا من ألمٍ ينتشر كالورم الخبيث!

لأكون سندًا لكل ضعيف،

مُصغِيةً لضجيجه الداخلي،

فأتقبله كما هو وأسعى إلى

جعله يتخلص من ألمه وضعفه،

فأساعده كي ينضج باكرًا،

لأخبره الحقيقة –

حقيقة أن الموت حقٌّ وإن كان يأخذ أحباءنا –

فهو قضاء الله وقدره.

لذلك،

يجب ألا ينطوي في غرفته،

بل يخرج فيتعرف إلى الناس،

ويعيش مواقف حياتيةً جميلةً

ولا يكتم مشاعره،

فيحيا من جديد ويتابع المسير على طريق الأحلام...

ماتَ أبي!

ترعبني فكرة الموت!

لقد أُصِبْتُ بهيستيريا الخوف؛

أبكي حين تصدح مكبرات الصوت في المساجد

بعبارة: (انتقل إلى رحمة الله تعالى)!

أعلم أنّ رحمة الله تعالى واسعة،

ومغفرته عظيمة،

وأنه أرأف بنا من أنفسنا،

ولكننا لا نستطيع إلا أنْ نذرف الدموع

على فراق مَن نحبهم ويحبوننا؛

على فراق أولئك الذين فقدناهم في المستشفيات،

أو في ساحات المعارك،

أو بفعل مرضٍ فتك بهم...

اليوم،

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

بعد سنوات من الوجع،

لم تجاوز صدمتي وحزني!

أنام لأستيقظ

وأستيقظ لأنام،

أعيش لتمرير الوقت فقط!

لقد اعتدتُ على الوجع،

اعتدتُ على حربي النفسية التي انهارت بسببها

مدن الطمأنينة في صدري،

حتى صرتُ أشعر أنّ الهدوء ضجيجٌ مؤلمٌ

في عالمي،

وأنّ سقف الغرفة يضغط على قلبي...

سنواتٌ وأنا ألقاك في أحلامي،

وحين أصحو تعود أنتَ إلى عالمِكَ!

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

طوال تلك السنين الكثيرة،

شعرتُ بقلبي يتحطم حتى فقد الرغبة في الحياة،

والأحلام والأماني التي كانت مُزهِرةً فيه

أصبحت اليوم رمادًا وسرابًا!

فقد بتنا يتامى مبتوري الأحلام،

معدومي السند،

محرومين من الحنان...

وبعد سبع سنوات،

تكررت المآسي ذاتها في الوقت عينِه وفي المكان نفسِه!

فمن شدة حبِّ جدي لفؤادِه

ذهب إليه ليؤنسه في قبره،

فعَظُمَ الألمُ والوجع!

لقد بنى فراقُكِ في قلب أبيكَ

حصونًا وهياكل ضخمة من الحنين والاشتياق،

فلم يتحمّل ذلك القلبُ العطوف الرقيق

مرارةَ البعد والحنين،

فودّعَنا وذهب إليكَ يا أبي، وكأن لسان حاله يقول:

(احملوني إلى فؤادي)!

فيا أيها الموتُ،

أتوسل إليك،

ارفق بقلبي ولا تسلبه أحباءه وخلّانه؛

ارفق بروحي التي تتألم حنينًا ووحشةً!

انسَ أيها الموت مَن بقي للفؤاد سندًا...

ذهب إليك أبوكَ... يا أبي!

جمعكما لله تعالى في جنان الخلد...

الرابعة والنصف بتوقيت الحنين

كم مَرَّ من الوقت وأنا على هذه الحال؟

كم طفلًا أنجبت البشرية؟

كم روحًا أخذ الموت؟

كم جسدًا واراه الثرى؟

كم قلبًا كسره الفراق؟

كم روحًا أوجعها الحنين؟

كم قصة حب تَمّت بالزواج؟

كم أصبح عدد الأوفياء لحبهم اليوم؟

كم من الوقت تحتاج الحياةُ لتلين؟

كم عليّ أن أضحي من صبحي ومسائي،

من روحي وقلبي؟

وكم وكم وكم...؟!

في الرابعة والنصف فجرًا تراودني هذه الأسئلة،

فهل مكتوب لي فقدٌ آخر أعظم منك؟

قد يكون الفقد من نصيبي مرةً أخرى،

لكن لا فقد أعظم من فقدك!

سأعترف وأقول

إني أعاني حالة هيستيريا تكاد تخنقني!

كيف استطاع الوجع أن يتسلل إلى داخلي؟

حتى الأرق أصبح يعانق أسطر كتابي المفضل!

لستَ هنا الآن،

أخذك الموت مني،

لا أراك ولا أستطيع أن ألتقيكَ!

بيد أنّ طيفَكَ يستوقفني كل صباح وكل مساء،

أراك بخيوط الشمس الذهبية

وبريق القمر النحاسي،

أراك خالدًا في ذاكرتي وفكري...

لا أستطيع حماية نفسي من أذى الحياة،

أنتَ فؤادي ونبضي وروحي وعمري...

أنتَ الحياة!

فكيف أعيش بعد أن أخذك الموت مني؟!

أفقي المتلبِّد

الألم الذي في داخلي

يحرّك جذور مشاعري ويغلف أحاسيس فؤادي،

كأنّهُ قوارع تُحبس لها الأنفاس.

موجِعةٌ هيَ مشاعرُ العناد في وجداني

بين الإصرار والاستسلام!

تتسابق اللحظات والأيام وما تزال حكايتي تبكيكَ،

أمور كثيرة تتغير ولا تغيّرُني...

هذا أفقي المتلبّد بسُحُبِ الكآبة والألم،

ذو الطقس المتقلّبِ بين عواصف الأحزان

وهدوء الوحشة المريب...

تشتد الريح بشكلٍ مفاجئٍ،

فتقتلع من جذور الأمل في روحي،

يصعق الرعدُ آمالي، ويرعِبُ أحلامي،

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

يتساقط الذين نحبهم كأوراق الشجر في الخريف،

أما أنتَ يا أبي فلم تكن ورقةً فحسب،

كنتَ شجرةَ آمالي وأمنياتي!

وكلما أفكر وأتخيّل كيف أنكَ غافٍ في حضن التراب،

تنتابني نوبة حزنٍ أشبه بهيستيريا.

أبيكَ فقدًا وشوقًا،

لكن حاشا أن أبكيكَ اعتراضًا على حُكمِ الله!

أحِنُّ إليكَ في لحظاتي كلها،

أتحنّ لي أيضًا وأنتَ غافٍ في حضن التراب؟

كم تمنيتُ أن تكون للمشتاقين مفارق خاصة

يتواعدون فيها، أريد أن ألقاك

كي أصافحك... أقبّلَك... أوصيكَ بنفسكَ...

ثم ألوّحُ لك مودِّعةً!

حمامةُ سلام

جالسةٌ أتأمل بكاء السماء،

أتساءل: على من تبكي الآن؟

وحدها السماء الصديقة الوفية للجميع،

إذ إنها كلما رأت حزينًا

تبرق وترعد

وتجهّز غيومها الرمادية والسوداء،

ثم تغضب فيصبح الجوُّ عاصفًا،

فتعلن السماءُ الحداد والبكاء...

ولكن، هل يُعقل أن تبكي السماء كلما بكيتُ أنا عليك؟!

لا أستغرب،

مَن مثلك يستحق أن نبكي عليه العمر كله،

وأن يعلن جيلٌ بأكمله الحدادَ من أجله!

ثمة حمامةٌ أسميتُها (حمامة السلام)،

كلما غضبت السماء تأتيني لاجئةً لتختبئ في شُبّاكي،

تأتيني باردةً ومبللة،

ترتجف بردًا وخوفًا،

ثم تجلس على شرفة غرفتي،

فأحدثها وأشكو لها همومي،

ثم أبرر لها سبب بكاء السماء!

أخبرها عنك، أحدّثها عن رقتك وحنانك،

ويبدو أنها أصبحت تحبك أيضًا...

ويخيفها فراقك!

وبعد هدوء العاصفة سرعان ما تذهب.

قلتُ يبدو أنها أصبحت تحبك،

لا... هي تحبك حقًّا،

إذ إنها حتى في الأيام الربيعية المبهِجة والسعيدة

أصبحت تأتي لتسمع قصصي وحكاياتي عنكَ!

حين أكون حزينةً

ومكتئبةً وغاضبةً،

حين تصيبني اللا مبالاة بالعالم فتنطفئ رغبتي...

أجدها إلى جانبي،

تمسح دمع عينَيَّ،

تبتسم وتتراقص إذ أبتسم،

تدندنُ بهديلِها الرقيق حين أشاركها

تفاصيل حياتي.

فبين الحب والفراق والتعلق والخذلان والحنين...

أعطيتُها الكثير،

أخبرتُها الكثير الكثير،

والحق أقول إنها كانت أفضل مَن استمع إلي!

فلا أحد يعلم ما أعيش من تفاصيل

خلال اليوم

سواك يا أبي...

أنتَ وحمامة السلام تلك.

لو تدري كم أحبك وأحبها؛

أحبكَ لأنك كنتَ تنصت إليَّ دائمًا،

وأحبها لأنها تفعل ما كنتَ تفعل...

إنها تذكِّرُني بك!

حفلُ انهياري

الفرح والحزن،

الضحك والبكاء،

الرضا والسخط،

الحب والكراهية،

الأمان والخوف...

هذه قائمة الانفعالات التي

دعتها نفسي لحضور حفل انهياري!

أرادت أن يكونوا مجتمعين

على حفل الانهيار الكامل بموسمه الجديد

في ذكرى وفاتك الثامنة!

ولكيلا تفوتهم اللحظات التاريخية بحُلَّتِها الجديدة،

اجتمعوا على مأدبة العشاء.

قُدِّمَ الطبق الرئيس الذي يتضمن قلبي!

ووُضِعَت بعض المُقَبِّلات:

روحي وأعصابي وطاقتي وبعض أحلامي،

والكثير من دموعي!

تدافع الحضور على الطبق الرئيس،

ففتك به الحزنُ

فلم يدع للفرح قطعةً واحدةً!

إنها سُلطة القوي على الضعيف...

ثم تهافت الباقون على أحلامي،

فنال منها الضياع، ثم أكمل عليها القلقُ!

أما أعصابي وطاقتي،

فدمّرَتْها الحَيرة!

وقُدِّمَ للوجع مشروبٌ مُرَكَّب من مجموعة

دموع فاخرة،

الكثير منها تساقط لأجلك،

وبعضها سقط على حبيبٍ أو صديق مُقَرَّب!

ولكيلا يحزن كُلٌّ من الفرح والرضا والحب

والأمان،

لملمتُ لهم ما ترك الحزنُ القوي،

فقدمتُه لهم!

أعتذر!

لقد داهمتَ ذهني وسط الزحام

ولم أدرِ ما السبب!

منذ ثماني عشرة ساعةً تقريبًا،

بكيتُ إذ تذكرتُكَ!

لكن منذ ما يقارب...

اعذرني يا أبي لم أستطع تذكر مقدار الوقت،

تشوشتُ قليلًا،

فسأكتفي بقول: (اشتقتُ إليكَ) ليصلك

ما أشعر به الآنَ،

فلن أمزق الورقة وأحاول للمرة الرابعة والعشرين

أن أكتب رسالةً إليكَ!

أظن أنّ سلة المهملات لها حظ الامتلاء اليوم،

أعتذر يا أبي عن عجزي عن إيصال

مشاعري وأحاسيسي!

سوف أحاول في المرة القادمة...

لكن

اشتقتُ إليكَ!

محاسن الصُّدَف

أفتقدك الآن كما لم أفعل في طفولتي.

كلما كبرتُ، تكبر معي بقعة الفراغ الخبيثة

التي احتلّت داخلي منذ رحيلِك،

لم أفكر بهذا المستقبل شبه الضائع والتائه!

وعلى الرغم من اكتمال الكثير من الأشياء

في حياتي،

إلا أني لم أشعر بالنقص!

رحلتَ باكرًا يا أبي،

تاركًا وراءكَ أمورًا كثيرةً تخصكَ

غيرَ مكتمِلة!

يُبكيني هذا النقص،

أنا المهووسة بالتفاصيل والأشياء الكاملة،

مع أني أعلم ألا شيء كامل في الحياة!

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

رحلتَ يا أبي،

وجودك الآن محصورٌ في خيالي فقط،

ظِلًّا مُؤنِسًا يرافقني منذ فقدكَ

حتى آخر لحظات عمري!

وصورةً رسمتُها وجَسَّدتُها في خيالي

جامعةً بها التفاصيل الغائبةَ جميعها،

لملمتُها عن رفوف ذاكرتي،

معظمها عن يوم استشهادكَ!

كتبتُ في دفتر ذكرياتي أن أبقى أتذكرك،

مستلقيًا مضرجًا بالدماء،

باسمَ الوجه غافي العينين...

أحاول طرد هذه الصورة واستبدال صورتك الحقيقية

بها؛

أعود لألبوم صور عائلتنا،

أصغي بحسرةٍ إلى كل حديثٍ يخصكَ.

جمعتْني الصدفة ذات يومٍ ببنتٍ

ظننتُها لن تتعدى كونها عابرةً،

ولكن

مع مرور الوقت،

وأنا منهمكةٌ بترتيب صورتك الحقيقية في خيالي،

ضحكت لي الحياةُ إذ عرفتُ أنّ تلك البنت

هي ابنة صديقك المُقَرَّب الذي

رافقك في مراحل حياتك جميعها!

لقد أصبحت خيرَ أختٍ وصديقة،

فيا لمحاسن الصدف!

في كل زيارةٍ لصديقتي ريم،

يحدّثني والدُها عنك... عن أيامِ شبابك،

عن طيشكَ في الصغر،

ونضجك في مرحلة الرُّشْدِ.

أشعر بالفخر حين يحدّثني عن شجاعتك العظيمة،

عن سعيكَ لنصرة الحق،

عن جهادك لدفع الظلم؛

عن رحمتكَ ولينِك – عند الحاجة! –

على الرغم من قسوتك وشدتك.

تجتاحني موجةٌ من الحنين والحزنِ لأني

لم أكن شريكةً في روايتك هذه التي تمنيتُ

لو أنها امتدت حتى آخر لحظات عمري،

فأواسي نفسي بأني جزءٌ من

شجرتك الثابتة،

وقطعة منك،

وأن دمك يجري في عروقي،

أحمل اسمك بقلبي وعلى هويتي...

أخبرني يا أبي:

هل هناك أعظم من شجرةٍ جذورها في عميق التربة؟!

هذا مَثَلُكَ أنتَ، وأنا غصنٌ من هذه الشجرة.

نيزكٌ كونيٌّ

أبارك للحياة الآن، لقد فازت عليّ للمرة الأولى

بعد الألف!

انتصرت ثورتُها،

دمّرَتْ جسدي، أشعلت لهيب قلبي،

جعلت روحي رمادًا والرماد لا يلملم أشتاته،

وأصابني نيزكٌ كونيٌّ

فَتَّتَني وأحرقني وهدّمَ كياني!

لم أعد أنا،

اشتقتُ إلى نفسي،

إلى طيشي،

إلى ضحكتي ودموع فرحتي؛

فقد قتلت الحياةُ البهجة داخلي!

بِتُّ أرى الأشياء كلها عاديةً،

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

أتعلم يا أبي

كم مؤلمة هي اللا مبالاة الإرادية والواعية؟!

لم يزرني الحب،

هجرت البسمةُ شفتَيَّ،

الظروف ترفض أن تعيدني كما كنتُ،

فتذهب بي إلى حيث شاءت،

ترفض أن ترحم قلبًا أُحرِقَ بلهيب الدمعِ

حين أشتاق لابتسامتكَ...

اللِّصُّ المختبئ خلف قناع الموتِ

سرق بهجةَ فؤادي... وسرقَك!

فراغٌ كُلّيٌّ

كم أودُّ لو أنك موجودٌ هنا.

لا أعتقد أنَّ أحدًا بوجودكَ سيتجرّأ على كسري!

وعلى الرغم من تعب الأيام

ورغبتي باعتزال العالم والناس

وإظهاري للا مبالاة

وانعدام الأشياء التي تدهشني...

إلا أنّ داخلي دُهِشَ وقلبي تمرَّدَ هذه الليلة!

لكنِ اليومَ أيضًا خسرتُ،

وفقدت عيناي بريقَهما!

أعاني فراغًا لا يمكن ملؤه منذ أن فقدتُك،

فرحيلكَ ترك في روحي وقلبي مكانًا شاغرًا

لا أحد يستطيع أن يشغله إلا أنتَ!

وعلى الرغم من مجيء مَن حاول لملمة شتات روحي،

إلا أنّ شتاتي كان أكبر من أن يُحتوى!

الوجع في داخلي يزداد،

واليوم اتسعت رقعة الفراغ لتكمل على ما

تبقى من أمانٍ وأملٍ في داخلي!

آه يا أبي

يا فؤادي

يا كُلّي!

أود أن أرتمي بأحضانك هذا المساء

وأبكي...

أبكي بكل ما فيّ من ألمٍ وحزنٍ.

وحين تسألني عن سبب بكائي،

سأخبركَ أني بخير،

وأنّ هذا نتيجة صداعٍ في الرأس ليس إلا!

غير أني أؤمن بأن عاطفتك الأبوية

ستعرف أن سبب بكائي الحقيقي

كسرٌ في قلبي وليس صداعًا في رأسي.

وإنّ خساراتي

وفشلي

وخوفي

وتضارب المشاعر في داخلي

وهشاشة روحي

وانسياب دموعي

وعجزي...

هذه كلها أشياء تبكيني!

هذا ثمن أول اختياراتي التي شاءت الحياةُ

أن يكون ثمنها باهظًا!

أنتَ هُنا

قبل أيامٍ قليلة من رمضان،

تسقط دمعتي،

تليها آهات حارّةٌ،

تختنق النبضات في قلبي فأشعر به

كأنه على وشك اعتزال الخفقان!

تشهق روحي تلك الأنفاس المؤلمة،

والغصة ذاتها تتجدد

في مثل هذه الأيام من كل عام...

وجعي عميقٌ كما المحيطات،

فرحي بعيدٌ عني بُعد الكواكب...

رمضان: بين الفقد والحرمان والخيبة!

الجميع يحضّر للشهر المبارك،

يتهافت الآباء والأمهات وسط أجواء الفرح

والسعادة العارمة

التي تقتحم قلوبهم.

وأنا يتفجر قلبي بالأحزان،

أشتاق إلى صوتك حين تدخل البيت،

فيُسمع معه أصوات خشخشة الأكياس المكدسة

في يديك!

أشتاق لتورد خَدَّيَّ حين تضحك فأضحك لضحكتك،

عيناي تبحث عنكَ في وجوه المارّة،

في أصوات الآباء بمحال الخضار

وعند عربات العصائر.

تئنُّ روحي من برد الوجع،

وخيوط الفقد تُنسج ثوبًا من حنين...

في اليوم الأول من رمضان،

تجتمع العائلة صغارًا وكبارًا،

هذه المرة اجتمعنا على الشوق إليك!

كُتِبَ على مائدتنا البكاء وعدم الاكتمال،

مائدة الطعام لا لذة ولا طعم لها على الرغم من

تنوع أطباقها!

أنتَ هنا... ولستَ هنا!

روحكَ على الكرسي أمامي،

صوتك الخشن المفعم بالدفء يرنّ بأذنَيَّ،

يداك تلامس وجهي...

أنتَ هنا، أشعر بكَ،

ألا تصدقني؟ أم إنك تُرجِعُ كلامي إلى الحنين؟

أنتَ حَيٌّ في قلبي،

في زوايا المنزل وعلى مائدة الإفطار؛

أنتَ حَيٌّ هنا، مع الصائمين والقائمين...

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

أنتَ حَيٌّ في صلاتي، في دعاءٍ مملوء بالحب!

أنتَ حَيٌّ صدقوني أم لم يفعلوا،

يكفي أني أراكَ بعين قلبي وأحتضنك بحنين روحي،

يكفي أن تبتسم في وجهي فتجبر كسر قلبي وتقول:

نعم... أنا هنا حَقًّا!

عقاربُ الزمن

يمرُّ الوقتُ مسرِعًا،

وتأتي العياد بكمٍّ هائلٍ من الوجع.

لم نعد كالسابق،

قتل الموتُ بهجة العيد داخلنا.

ما زالت نساء العائلة يصنَعْنَ كعك العيد،

إلا أنه يُوَزَّع عن روحكَ،

لذلك أشعر بطعمهِ المُرِّ حين أتذوقه!

دارنا تحتضن السهرات العائلية،

لكنّ شيئًا ما ليس كالسابق!

نضحك ونتحدث،

لكن الضحكات ممزوجة بالغصات والحنين،

والأحاديث مملوءة بالذكريات التي نتمنى عودتها!

كان أكبر احلامي ان أبقى مستيقظة حتى

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

ساعات الفجر الأولى،

كي أتأمل الشروق بلهفة طفلةٍ تنتظر

أنْ يحين وقت القيام بطقوس العيد.

أزرع قُبلةً على جبينك،

أحتضنك،

أمسك بيدك،

أسير معك الطريق كلها على الرغم من الازدحام،

لأحمل بيدي حلوى وباقة ريحان

لنضعها على قبر جدي الذي تُوُفّيَ قبل أن أولَد.

أما الآن،

يحتشد البكاء في عينَيَّ،

أطفئ الأنوار وأعتزل الناس،

أبقى هكذا حتى طلوع الفجر!

ثم أقوم وأرتدي ملابسي السوداء وأرافق أفراد العائلة،

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

أمشي بخطوات متثاقلة،

فأنا إلى الآن لم أستطع تقبّل

فكرة زيارتك صباح العيد في المقبرة!

أسير في الطريق ذاته،

أمسك بيدي الريحان والحلوى،

وكلما اقتربتُ من القبر أشعر بضيقٍ في صدري،

كأن الدنيا قد علقت في حنجرتي

وهموم الكون وأوجاع المجرة تتربص داخلي!

بكل خطوةٍ تنهمر دمعةٌ لتختصر الكثير من الكلام،

يا لقسوة الفقد!

أرتمي لاحتضان ترابك وتقبيله،

بدل تقبيل جبهتكَ واحتضان جسدك الحنون،

أنثر أوراق الريحان وأعطيها شرف احتضانك،

تغمر قطع الحلوى الصغيرةُ الترابَ،

فيتهافت الأطفال لأخذها مردّدين عبارة: (عن روحه)!

وبكل مرة يقولونها يزداد بكائي؛

أين اللذة بالتحلي عن روح فؤادي؟!

سؤال راودني الآن حين نثرنا قطع الحلوى

على قبور من فقدناهم،

كي نجذب براءة الأطفال ليترحموا على

مَن تفقده روحنا،

ألا يستطيع الطفل البريء أن يترحمَ على روح

أحبائنا من دون هذا؟!

يزعجني الأمر كثيرًا،

لا أجد لذةً بتناول قطعةِ حلوى ممزوجة بالدموع!

أتمنى أن يعود بي الوقتُ

لأتخلص من الحنين،

وأغيّر طقوس العيد، فنجلس صباحًا في منزلنا

بدل الذهاب إلى المقابر،

ترتشف أنتَ فنجان قهوتك،

وأتأملك أنا فأرتشف من حنانك ورقتك!

كما حَلُمْتَ

كُلٌّ منا يسير نحو حلمه ليرفع اسمكَ عاليًا.

أمي، تاج رؤوسنا والوفية المخلِصة لروحكَ، تحتضن

أسرتنا التي تكبر يومًا بعد يوم؛

هي سندنا وقوتنا ومشجِّعتُنا ونور دربنا.

(خالد) كَوَّنَ أسرته الصغيرة

ورزقه الله تعالى طفلَيْن أجمل من باقة ورود،

يتنقلون في المنزل وينظرون إلى صورك التي

لا يخلو منها جدارٌ في المنزل.

(فؤاد)، ابن اخي، يشبهك بشكلٍ لا يُوصف!

يكبر بكَ حاملًا اسمك،

أصبح يعرفك جيدًا ومع هذا يتساءل كثيرًا عن

تفاصيلك وعن مكانك الآن!

نقول له إنك في السماء،

ونحن هنا نسكن الأرض!

(عماد) ما زال صغيرًا وخطا أولى خطواته أمس،

وأنا على يقين أنه سيتعلق بك

ويتساءل عنك ويحن إليك...

أطفال وحيدِكَ سيفخرون بك وبتاريخك... مثلنا!

أما كبيرة قلبكَ (مروى)،

فقد أنهت دراستها واستقلت بعملها،

والآن هي مشغولةٌ بتجهيز منزلها والتحضير

لحفل زفافها الذي لن يكمل بوجودك المؤنِس!

تستعد الآن لبناء منزل أحلامها

إلى جانب الإنسان الذي أحبَّهُ قلبُها،

وتهيّأ لتكوين أسرة جميلة.

أما أنا و (جنى): توأمَاكَ الصغيران،

فكُلٌّ منا توجّهَ إلى حلمه،

وكلتانا الآن في عامنا الجامعيِّ الثاني،

وشغلنا الشاغل هو (تحقيق أحلامنا)،

لذلك نخطط ونعمل ونجتهد...

نحن الآن كما حلمتَ يا أبي:

كُلٌّ منا مشغول بتحقيق أحلامه،

وبإنجاز أعماله،

والاعتناء بأسرته...

وأنتَ حاضرٌ في حديثنا عن أحلامنا

ومستقبلنا وأمنياتنا...

مرقدُهُ فؤادي

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

إلى الأطفال الذين كانوا يلعبون بالجمر والنار والحجارة:

أتساءل عن براءتكم التي جعلتكم

تردون على القنابل المُسيِّلة للدموع بالحجارة!

يا لبراءتكم القاتلة!

كانت نتيجة ردِّكم على القنابل والرصاص بالحجارة

مأساويةً عليكم،

إذ مورِسَت بحقكم قسوةٌ ترقى لتكون قمة اللا إنسانية!

عشرات الرصاصات الحية اخترقت أجسادكم الرقيقة!

ولقد قُتِلَ أبي!

قُتِلَتْ بهجة حياةِ عائلةٍ بأكملها!

ومن بين الرصاصات الكثيرة،

كانت واحدةٌ كفيلةً بأن تسلبني فؤادي

تفوزَ بلقب (ندبة عمري الأبدية)!

أسألكم الآن:

هل يستعيد الحجر الفوضوي على سرابٍ

سماويّ مهمَلٍ وطنًا تبعثرَ دمًا على أرض المخيم؟!

أسألكم ورسالتي هذه لكم أنتم،

أحياءً وأمواتًا!

لقد فقدتُ أبي،

واستعدتُ الرسالة كي ألقي بها في بحيرة أحلامي

الذاهبة إليه.

رسالتي لم تكن حجرًا،

ولا قنبلةً مسيلةً للدموع،

ولا رصاصًا يفتك بأجساد الأبرياء

ويقتل الأحلام

ويبهت لون الحياة...

بل كانت رسالةً ممزوجةً بدم أبي الشهيد،

كتبتُها بحبر الوجع واليُتم،

وعلى الرغم من هذا سال الأمل مع اليُتْم والوجع

على مجموعةٍ من الأوراق اسمها:

(مرقدُهُ فؤادي)!

لن أسامح ولن أغفر!

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

لن أسامح ولن أغفر،

لن أصالح ولن أقبل المساومة!

بقلمي سآخذ بثأركَ، سأقاوم وأحارب وأناضل؛

سأصرخ وأغضب وأشعل الثورات والانتفاضات...

سأستخدم كيد حواء وذكاءها ومكرها لأحييكَ أدبيًّا في

نصوصي وقصائدي،

سأريق من الحبر بقدر ما أُريق من دمكَ!

سأُبلِغَ الأرضَ عتابي عليها

لأنها ارتوت من حنانك ودفئكَ

واحتضنتكَ عوضًا عني!

لا سامح اللهُ مَن كان سبب فقدي وحرق فؤادي،

ولا مَن ثار وأطلق الرصاص ثم ساوَمَ!

لن أسامح ولن أغفر!

إلى بطلي الأول

سنى فؤاد لوباني – مرقدُهُ فؤادي

إلى بطلي الأول، وحبي الأبدي...

إلى فؤاد الروح!

على الرغم من مرور الأيام بسرعةٍ وتوالي السنين،

إلا أن فكرة موتك لم تزل ترعبني!

لا أصدق أنّ عمر يُتمي أصبح تسعة أعوام!

لكنك موجود في تفاصيل حياتي كلها،

أنتَ هنا، وحين أقول هذا أضع يدي على قلبي،

وأضم ذكراكَ إليّ بشدة،

فأنتَ فؤادي!

أول ما كتب قلمي قصيدةٌ لك،

بدأت مسيرتي الأدبية منك ثم توسّعت لتشمل

الناس كلهم!

صغيرتك كبرت،

وها هي تحاول أن تعيدكَ إلى الحياة أدبيًّا،

لتتجسد صفاتُك النبيلة وسط الكتب والأوراق

وتظهر حُرّةً عظيمة...

سوف أناجي روحكَ بقلمي،

فمنذ يوم استشهاد حتى يومي هذا،

وأنا أقدم إليكَ كلماتي الممتلئة بمشاعر الحب

الممزوج بالحزن والقهر!

لكن هذا العام،

وفي اليوم الذي تسلَّمْتُ فيه شهادة وفاتكَ،

أقدّمُ لك وللعالم شهادة ولادتكَ من جديد،

نفضتُ غبار اليُتْمِ عن قلمي؛

مباركٌ على الكون ولادتك من جديد!